الباب الثانى

حياتى كطالب سوفييتى

قال لى مدير بيت الطلبة بنبرة حادة :

« لو وجدت عملا فى ظرف خمسة أيام ، أو قبلت فى أى مدرسة تدبر لك مأوى ، فلن يكون هنـــاك اعتراض على تركك بيت الطـــلبة « سبارتاك » - والا فستظل هنا ، ويجب أن تلتزم — مثلك فى هذا مثل الآخرين كلهم — باتباع جميع لوائحنا » .

وكان قرارى بينى وبين نفسى :

لن أمكث فى « سبارتاك » مهما كانت الظروف ، فهو بيت يخيم عليه الكآبة ، ولابد أن أخرج منه . لأنى أشعر فيه وكأنى أرتدى رداء يكتم أنفاسى .

وهكذا بدأت البحث عن مدرسة ، تقبل من أتم دراسة الفصل التاسع (الاعدادية) ، ويمكن أن تعطينى منحة دراسة ، وتهيىء لى مكانا للاقامة .

* * *

الدروس التجهيزية المنقذة

اتجهت الى مدرسة للمعلمين فى موسكو ، تتخذ لها مبنى قديما قرب محطة مترو الأنفاق « كيروفسكايا » ، ملتمسا قبولى فيها ، فكان ردهم على : « لا نستطيع قبول أحد اليوم ، لأن العدد كاملا فى هذه الدورة ، ولكن لدينا قائمة انتظار لمن يلتحقون فى شهر أغسطس ، يمكنك أن تسجل اسمك فيها » .

وحين قدمت لهم شهادتى التى توضح بأنى طالب ممتاز قالوا لى : « وبما تستطيع أن تستثنيك ، مر علينا بعد غد » .

بعد غد ! كان هذا آخر يوم يحدده ناظر المدرسة .

خرجت فى طريق عودتى من المدرسة على المسكن الجميل الذى

كنت أسكن فيه فى « كلاشنى » ، وكان قد تحول آنذاك الى مأوى لأطفال سوفييت ، الا حجرتين تركوهما لسكنى بعض الشباب النمسويين والألمانيين الذين لم يستطيعوا تدبير مأوى آخر لهم ، وقد قيل لى دوما أننى أستطيع الاقامة معهم مؤقتا ، اذا لم أحصل فى المدرسة التى قبلت فيها على مكان للنوم .

طلع نهار اليوم الخامس ، الذى سوف يتقرر فيه مصيرى .. دخلت مبنى مدرسة المعلمين متوتر الأعصاب ، فقال لى الموظف :

« بناء على بحث مسألتك ، قررنا قبولك » .

أردت شكره ، والشعور بالسرور يملأ جوانحى ، وكيف لا ، فقد أحسست بأنى أصبحت فعلا طالبا فى المدرسة ، وتخلصت من « سبارتاك » ، ولكن هذا الاحساس كان سابقا لأوانه ، اذ سمعت كلمات تدق فى أذنى :

« انتظر أسبوعا على الأقل ، حتى تنتهى الاجراءات ، وبعدها يمكن أن تأخذ تصديقا من المدرسة بأنك قبلت للدراسة فيها » .

« أسبوع آخر ! لا أستطيع أن أنتظر هذا الوقت الطويل ، ألا يمكن أن يوافق المدير اليوم على قبولى ؟ فأنا مضطر أن آخذ شيئا فى يدى ! ورقة رسمية تثبت قبولى ! لأن فى هذه الورقة انقاذى » .

« هل تريد أن تلتحق بدورة دراسية تجهيزية ؟ اذا واغفت فيمكن قبولك فى هذه اللحظة ، ولكن سوف تضيع عليك سنة » .

بدت لى الأمور فى هذه اللحظة متساوية ، لم أهتم بشىء سوى الابتعاد عن بيت الطلبة الروس . لم أعرف بالضبط فائدة هذه الدورة التجهيزية ، وكان عندما سمعت أنه يمكن قبولى فى هذه اللحظة ، لم أتردد فى الموافقة . لأن كل شىء يهون فى سبيل خروجى من بيت الطلبة .

ولم تمض بضع دقائق حتى كنت أمسك فى يدى تصديقا فيه أن الزميل « رولف جانج لهونهارد » تلميذ فى الدورة الدراسية التجهيزية فى مدرسة المعلمين للغات الأجنبية فى موسكو .

غادرت المدرسة وأنا أطير فرحا . وبعد نصف ساعة كنت فى بيت الطلبة « سبارتاك » ، وبعد وصولى بنزهة قصيرة كنت أقف أمام المدير ، حاول أن يكون لطيفا معى ، لدرجة أنه هنأنى على قبولى بمدرسة المعلمين .

ثم ودعنى أصدقائى ، من الألمانيين والنمسويين ، أصدقاء بيت الطلبة السابق رقم ٦ ، الذين قضيت معهم أعواما طويلة ، وكانوا قد حولوا معى أيضا الى بيت الطلبة الروسى « سبارتاك » • تمنوا لى الخير كما فعل المدير ، ولكن كان فى كلماتهم حرارة ووضوح على عكس ما كان فى كلمات المدير من برود وتكلف •

وهكذا بدأت حياتى فى صيف عام ١٩٣٩م طالبا فى القسم التجهيزى فى معهد المعلمين للغات الأجنبية فى موسكو •

كانت الدورات التجهيزية — التى تستغرق عاما — بالنسبة للمعاهد العليا آنذاك منتشرة فى الاتحاد السوفييتى ، وكان الغرض منها تجهيز الشباب لمعهد عال معين ، وتمكين الطلبة الراغبين فى الالتحاق بتلك المعاهد من الالمام بالعلوم التى يريدون التخصص فيها ، ويؤدى الطالب امتحانا فى آخر العام يكون بمثابة امتحان قبول فى المعهد الذى يرغب الالتحاق به • وبناء على قبولى بهذه الدورة ، فقد كنت متأكدا أننى بعد سنة — أى فى صيف عام ١٩٤٠م — سوف ألتحق بمعهد المعلمين للغات الأجنبية الذى يسمى « موليا » •

لم تكن الدروس صباحية فى مبنى المعهد ، بل بعد الظهر — وفى المساء — فى حجرات احدى المدارس فى وسط موسكو • وعلى الرغم من أننا كنا — تقريبا — طلبة ، الا أن الدراسة فى هذه الدورة التجهيزية كانت تشبه الى حد بعيد الدراسة المدرسية • فالبرنامج الدراسى يسير بالضبط كما فى المدرسة ، حصص مقررة كما فى المدارس ، أعمال فى الفصل ، حل تمارين ، وواجب منزلى — وكان يرصد لنا درجات على هذه الأعمال • وأثقل كاهلنا بالاختبارات الكثيرة ، كما هى العادة فى كل المدارس السوفييتية • كان أكثر من نصف الوقت الدراسى مخصصا للغة الانجليزية ، وكنا ندرس بجانبها مواد فرعية مثل : اللغة الروسية ، والأدب الروسى ، والتاريخ • وكنت مسرورا بهذا المنهج ، لأنى تحررت من دراسة الرياضة والطبيعة والكيمياء ، فقد أعطانى هذا فرصة للتركيز على المواد الأدبية التى أهتم بها •

يتقدم المرء فى الدورة التجهيزية بأسلوب دراسى منظم وشامل ، الا أنه بطىء جدا ، ففى الثلاثة أو الأربعة شهور الأولى من السنة تتركز الدراسة كلية على الصوتيات ، لأنهم يهتمون بالنطق اهتماما

كبيرا • كتبت كل قواعد الاملاء بالطريقة الصوتية العالية ، فكرسنا وقتا طويلا لنطق العلامات الصوتية ، وكان يجب علينا أن نتمرن أمام المرآة لنتبين بالضبط مواقع اللسان وحركات الفك عند النطق • ولم نبدأ فى لغة الكتابة الانجليزية بألفها وبائها الا فى بداية النصف الثانى من العام •

ربما تبدو هذه الطريقة التعليمية مملة للمفكر فى أوربا الغربية ، ولكن لها محاسن ، ذلك أن الدارس عندما يبدأ قراءة النص الانجليزى يكون لديه قدرة على اتباع القواعد الصحيحة — عموما — فى نطق اللغة ومما لا شك فيه أن هذا هو الطريق الوحيد لتعليم اللغات الأجنبية فى بلد نادرا ما يسمع فيه المرء اذاعة انجليزية ، أو يرى فيه أفلاما أمريكية أو انجليزية ، وما يوجد من الكتب الأمريكية أو الانجليزية فقليل ، ومن الأمور التى ينبغى ألا تخفى على القارىء أن المواطن الروسى أو المقيم اقامة دائمة مثلى ليس لديه اطلاقا امكانية التحدث مع زائرين أمريكيين أو انجليز ، ولهذا كانت طريقة تعليم اللغة الانجليزية التى شرحتها آنفا هى التى تتناسب مع الحياة السوفييتية •

اهتممت كثيرا بدراسة مادة التاريخ — وفضلتها على المواد الأخرى — التى تعيرت فى كثير من أبحاثها ، ومنهجها ، بعد عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا : فقبل عام واحد كان انتصار « ألكسندر نيوسكس » على جمعية المحاربين الألمان فى معركة « بحيرة بايبوس » فى أبريل سنة ١٢٤٢م حديث فخر واعتزاز ، وحدث هام فى التاريخ الروسى ، أما الآن — بعد توقيع المعاهدة مع ألمانيا — فلا تذكر هذه المعركة الا فى جملة أو جملتين ، وقفز الى مكان الصدارة فى دراسة التاريخ القاء الضوء على المغزى التاريخى لسياسة بطرس الأكبر الخارجية ، فقد انتهج سياسة مساندة قيام الدولة البروسية فى عام ١٧٠١م ، وبهذه المساندة وضع الحجر الأساسى للتعاون بين ألمانيا البروسية وروسيا ، ذلك التعاون الذى يعود اليوم الى الظهور مرة أخرى ••• ثم يلى هذا التحليل الوصف المعهود للمعنى التاريخى للمعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا •

كذلك لم يكن التغيير بعد المعاهدة خافيا فى المجالات الأخرى ، ففى مكتبة الأدب الأجنبى ، والمنشورات الدورية الاجنبية ، اختفت

الجرائد والمجلات التى يصدرها الهاربون من الحكم النازى وحلت محلها الصحف النازية • ورفع من المكتبة روايات كتبها لاجئون سياسيون لتصوير طغيان النازية • ولم يعد المرء يسمع كلمة « الفاشية » فى الاتحاد السوفييتى اطلاقا ، وكأن لم تكن — ولم توجد من قبل — فاشية على الاطلاق •

تغيرت السياسة الداخلية أيضا تغييرا مفاجئا ، فغيرت مسارها — بزاوية حادة — بعد عقد المعاهدة ، ففى مساء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩م رفعت من دور العرض كل الأفلام السوفييتية التى تعارض الفاشية مثل فيلم « بروفيسور مملوك » و « أسرة أوبنهايم » وهو عن قصة كتبها « ليون فيوشت فاجنر » • كذلك رفع فى نفس المساء كل المسرحيات التى تضمنت اتجاها مضادا للفاشية ، مثل مسرحية : « بحارة من جتارو » على الرغم من أن أحداثها تدور حول ثورة البحارة فى عام ١٩١٨م وكانت ضد الحكم الملكى فى النمسا والمجر ، الا أن الرقابة على المسرح احتاطت أكثر مما يجب ، فمنعتها خوفا من أن يغفل المشاهد تاريخ أحداثها •

عندما بدأ الهجوم الهتلرى على بولندا فى الحرب العالمية الثانية — وكان ذلك فى أول سبتمبر ١٩٣٩م — انطلقت الدعاية السوفييتية معبرة عن الرأى الرسمى للحكومة تحلل وجهة نظرها فى هذه الحرب :

تدور المسألة حول حرب امبريالية من كلا الجانبين ، وقد نجح الاتحاد السوفييتى أن يقف على الحياد فى هذه الحرب ، طبقا لسياسته الخارجية التى تتسم بالعبقرية وبعد النظر •

ثم انتشرت بعد أيام قليلة أول حكاية هزلية ، فى اطار الدعاية السوفييتية :

— هل سمعت عن نهضتنا الجديدة فى انتاج الطائرات ؟

— لا ! كيف ؟

— سقط أمس متحطما فوق أوربا الغربية اثنتا عشر طائرة انجليزية، وثمانى طائرات ألمانية •

— ولكن ،ما علاقة هذا بانتاجنا فى الطائرات ؟

— هذا واضح جدا ، فسقوط هذا العدد عندهم ، معناه ارتفاع فى عددها عندنا •

وبعد ما انهارت بولندا كلها تقريبا أمام جيوش هتلر ، أعلنت وسائل الدعاية عن دخول قوات سوفييتية أرض بولندا • ثم عقدت فى نفس اليوم اجتماعات جماهيرية فى كل مكان — وبالطبع فى معهدنا أيضا — شرحت فيها الاجراءات التى اتخذتها الحكومة السوفييتية لحماية حياة وممتلكات اخواننا فى الدم ، شعوب غرب أوكرانيا ، والأجزاء الغربية من روسيا البيضاء • كان هذا هو السبب الذى أعلنه المتحدث الرسمى لدخول قوات سوفييتية أرض بولندا ، ونسوا أن الاتحاد السوفييتى أعلن قبل بضعة أسابيع — بل أكد ذلك تأكيدا — أنه سيحمى بولندا من أى هجوم يفكر فيه هتلر ، وسيدافع عنها •

أوشكت القوات الألمانية على اتمام غزو بولندا فى ٢٨ سبتمبر يوم أن أعلن أنه بالاضافة الى معاهدة عدم الاعتداء التى عقدت مع ألمانيا ، فقد تم الآن عقد معاهدة صداقة ، بعد ما اتفق على الحدود الجديدة فى المنطقة التى كانت تسمى قبل ذلك بولندا • ظلت سياسة الحزب الرسمية — حتى بعد عقد معاهدة الصداقة — تدور حول تفسيرها السابق ، وهو أن المسألة تتعلق بحرب امبريالية من كلا الجانبين •

لقد علمتنا التجارب منذ أمد طويل ، ودربتنا الأحداث على أن نمعن النظر فيما يقال ، ونفكر تفكيرا دقيقا فى كل اشارة — مهما كانت صغيرة — تظهر فى الجرائد ، أو تذاع فى وسائل الاعلام المسموعة ، ولهذا لم يكن فى الامكان أن يغيب عنا أن تقارير وزارة الدفاع الألمانية تكون دائما فى المقدمة ، سواء فى الاذاعة أم فى الصحافة ، أما بيانات انجلترا وفرنسا عن سير المعارك فتأتى فى المرتبة الثانية • كذلك كانت المساحات التى تشغلها خطب « هتلر » فى جريدة « برافدا » أكثر من المساحات التى تحظى بها المقررات المنشورة من خطب « تشرشل » • وبهذا لم يكن من الصعب علينا أن نتبين انحياز الدعاية الرسمية لهتلر وأن ميولها تميل الى جانبه أكثر مما هى الى جانب القوى الغربية •

* * *

فى الكرملين

غرس أسلوب السياسة الخارجية فى نفسى الشك فى بعض الظواهر فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن لم يهز بعد موقفى كلية من

الأعماق ، ولهذا لم أتردد فى أن أحاول فى هـذه الفترة الالتحـاق « بالكمسمول » (منظمة الشباب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى) • لقد تمنيت مخلصـا أن أكون عضـوا فى هذه المنظمة (أى أن أكون كمسموليا) ، لأنى قرأت كثيرا عن أعضائها ، وعن أعمالهم البطولية فى الثورة ، وفى الحرب الأهلية ، واطلعت على ما قاموا به من جهد خارق فى الخطة الخمسية الأولى • ومن الأعمال التى أثرت فى نفسى أكثر من غيرها كتاب « نيكولاى أوستروفسكى » وهو بعنوان « كيف اخشوشن الصلب » وهى قصة الشباب السوفييتى فى المنظمة ، أثرت على كثير منهم ، كانوا يقرأونها كلما اعتراهم شك ، فتخلق فيهم الثقة بالنفس ، وتبعث فيهم قوة جديدة ، وتبث فيهم طاقة وحيوية •

كان « الكمسمول » آنذاك يستعد للاحتفال بمرور ٢١ عاما على انشائه ، ففى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلن فى أول مؤتمر روسى عام لشباب العمال والفلاحين ارتباطه الكلى بالحزب الشيوعى ، وأطلق عليه منذ ذلك الوقت « منظمة الشباب الشيوعى فى روسيا » • ثم عرف بالاسم المختصر « كمسمول » •

تعتبر سنوات الحرب الأهلية فترة شاعت فيها قصص البطولات التى قام بها أعضـاء المنظمة ، وهى فى الوقت نفسه فترة النمو الهائل فى عدد الأعضـاء ، اذ ارتفع من ٢٢٫٠٠٠ عند تكوينها فى نوفمبر سنة ١٩١٨م الى ٤٠٠٫٠٠٠ عضو فى بداية عام ١٩٢٠ م • لم تكن « كمسمول » آنذاك مؤسسة سياسية توجهها قيادات عليا فى الحزب ، بل كانت اتحادا ثوريا للشباب يموج بتيارات معارضة متعددة الاتجاهات داخـل تنظيماته فقد قام فى عامى ١٩٢١/٢٠م فى « كمسمول » أوكرانيا جبهة معارضة دعت الى تأسيس منظمة شباب خاصة بها تتمتع بالاستقلال عن موسكو ، واستند هذا التيار المعارض الى ما كان يسمى « بورت بيستن » ، وهى مجموعة يمينية داخل الحزب البولشفى الأوكرانى ، كانت تنادى بتطبيق أسلوب اشتراكى خاص بأوكرانيا ، يكون مستقلا عن موسكو • وأهم من هذه الجبهة وأخطر منها كان هناك تيار آخـر فى « الكمسمول » يسمى نفسه « شباب الاقتصاد » ارتكن الى جبهة العمال المعارضة • عارض هذا الاتجاه الزيادة المطردة لمركزية الاقتصاد وأجهزة الدولة ، ووقف ضد قيادة المؤسسات الاشتراكية بواسطة المديرين الذين تعينهم الدولة ، فطالبت بأن تكون الادارة من داخل مواقع العمل ، على معنى

أن يتولى العاملون فى المؤسسة ادارتها ، اذ ينبغى أن تكون ادارة المؤسسات الاشتراكية لهيئة مجلس عمالى منتخب ، يكون نشاطه منسقا على مستوى عال مع مجلس انتاج منتخب • وهذا المشروع يشبه فى كثير من جوانبه نظام مجالس العمال الذى طبق فى يوغسلافيا بعد ربع قرن عندما تصدعت العلاقات مع موسكو •

وصفت هذه التيارات المعارضة بأنها انحراف خطير • ولذا جرى تصفيتها بالقضاء عليها ، ولم يعد لها ذكر اليوم على الاطلاق •

ازداد عدد المنضمين الى المنظمة بسرعة كبيرة بعد موت « لينين » فى يناير سنة ١٩٢٤م ، اذ وصل عدد أعضائها فى أكتوبر سنة ١٩٢٤م ٧٠٠ر٠٠٠ عضو ، وارتفع فى مايو سنة ١٩٢٨م الى ٢ مليون ، ولكن أعضاءها فقدوا الحماس الثورى ، اذ قضت السلطات العليا فى الحزب على حركتهم التى فاضت حيوية ، وأوقفت تياراتهم المتدفقة ، وأماتت الأفكار البناءة فازداد خضوعها للحزب ، ووضحت هذه الاجراءات بنوع خاص بعدما قال « ستالين » : « ان منظمة الشباب هى الساعد الأيمن للحزب ، وأداته فى تنفيذ ما يريد » •

دبت الحياة مرة أخرى فى « الكمسمول » ، فاندفع بقوة فى خضم الحياة السوفييتية ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٨م عندما بدأت الخطة الخمسية الأولى ، اذ تسابق أعضاؤها — تماما كما كن فى الحرب الأهلية — الى المشاركة فى تنفيذها ، بذلوا كل ما عندهم من طاقة وجهد ، فاشترك عشرات الآلاف منهم فى بناء المصانع الضخمة فى « ستالينجراد » ، وفى « دنييبر » وفى « أوراس » و « سيبيريا » بل انهم بنو مدينة بأكملها فى الشرق الأقصى ، ولذا أطلقوا عليهم اسم « كمسموليسك » تكريما لهم •

كان « الكمسمول » فى منتصف الثلاثينات — وكان عدد أعضائها آنذاك ٤ مليون تقريبا — تجتاز نقطة تحول ، شأنها فى ذلك شأن المؤسسات الأخرى ، فقد تغير أسلوب تنظيماتها جوهرا وعرضا ، فبعد أن كانت انعكاسا للثورية فى حياة « لينين » ، استبدلت بآخر ، حيث احتلت أفكار الثورة ، والنظرة العالمية ، والكفاح من أجل ظلم كل الشعوب — حيثما كانت — المكان الخلفى ، وتقدمت أفكار اقليمية مثل حب الوطن السوفييتى ، والولاء للدولة ، والحفاظ على نظامها •

لم يعد الولاء للاشتراكية ، ولا الحرص عليها ودراسة تاريخها من المقومات التى يعول عليها فى الالتحاق « بالكمسمول » بل أصبح الفيصل فى هذا الولاء للنظام القائم ، والحرص على مساندته وتدعيمه .

اهتم النظام التربوى فى « الكمسمول » على التثقيف السياسى ، والرياضة البدنية والتدريب العسكرى وبجانب هذا دراسات أدبيـة ، وحفلات موسيقية ، وحفلات رقص .

كتب على شباب المنظمة ألا ينعمـوا بهذه الحياة طويلا ، اذ بدأت بعد وقت قصير حملة التطهير الكبرى التى امتدت من سنة ١٩٣٦ ، حتى سنة ١٩٣٨م ولم تسلم « الكمسمول » منها ، بل أثرت فيها تأثيرا مدمرا . فلم يسلم منها « كوساريف » الذى تقلد منصب الأمين العام « للكمسمول » سنوات عدة فقد انضم هذا الشاب — الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ٣٥ عاما — الى « الكمسمول » بعد انشائها مباشرة فى عام ١٩١٨م ، واشترك وهو شاب لم يتجاوز من العمر ١٦ عاما بصفته عضوا فى المنظمة فى الدفاع عن « بيتروجراد » ثم اشترك فى جبهة القتال المتقدمة ، وبعد رجوعه اختير أمينا لحى « باومان » فى موسكو ، ثم أمينا لرابطة موسكو ، ومنذ مارس ١٩٢٩م يحتل قمة « الكمسمول » كأمين أول لها .

وجه اليه البوليس السرى قبل نهاية حركة التطهير بقليل ضربة قاضية ، فاتهم « كوساريف » ومساعديه المقربين اليه بأنهم مخادعون ، ومنافقون ، ومنحلون أخلاقيا ، قاموا بأعمال ضد مصالح الشعب ، وذلك بمسخ ، وطمس أهداف « الكمسمول » .

كانت حركة التطهير قد انتهت عندما التحقت « بالكمسمول » فى عام ١٩٣٩م وكان عددها آنذاك ٩ مليون عضوا . وقبل أن ألتحق بها بعام بدأت فى اعداد نفسى سياسيا لامتحان القبول ، فدرست نظامها ولوائحها الدستورية ، وقرأت أهم ما كتبه « لينين » و « ستالين » ، وألممت — بالطبع — بتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى وعندما شعرت بالقدرة على اجتياز الامتحان ، كتبت طلبا وأرسلته الى الجهة المسئولة ، والمكلفة بتلقى طلبات الالتحاق ، وشرحت فى هذا الطلب — كما هو متبع — سبب الرغبة فى الالتحاق ، وعللت ذلك بدوافع سياسية .

وبعد بضعة أسابيع كنت أجلس فى حجرة هادئة ، يحيط بى

مجموعة من شباب المنظمة الروسيين ، فحصونى بنظراتهم من أم رأسى الى أخمص قدمى ، ثم قال الأمين : أمامنا الآن طلب الالتحاق المقدم من الزميل « ليونهارد » ، وهو معروض عليكم لدراسته واتخاذ قرار بشأنه ؛ ثم قرأ الطلب أمامهم ، وبعد الانتهاء من قراءته ، ساد الصمت ، وشعرت كما لو كنت فى لجنة من لجان الامتحانات المدرسية ؛ ثم استمر الأمين فى حديثه قائلا : وكما هو متبع فان من الأحسن أن يقص علينا الزميل « ليونهارد » تاريخ حياته ، وأرجو من الزملاء أن ينصتوا جيدا ، ثم يوجهون أسئلتهم فى نهاية حديثه .

كتب على أن أروى للشباب الروسى بصوت رخيم بين المقاطع ، شيئا من حياتى غير العادية . دارت بخاطرى أفكار شدتنى الى ما قبل سنتين فقط ، وقلت لنفسى ، لو تقدمت بطلب الالتحاق قبل ذلك بعامين لرفض طلبى بالتأكيد ؛ اذ لا يوجد أحد فى منظمة الشباب ، له من الشجاعة ما يدفعه الى تزكية طلب الالتحاق من شاب نفى فى أيام طفولته من ألمانيا واعتقل جهاز أمن الدولة فى وزارة الداخلية السوفييتية أمه . أما الآن فى خريف عام ١٩٣٩م فالوضع — مهما كانت الظروف — متغير تماما . طردت هذه الأفكار وبدأت فى سرد تاريخ حياتى دون أن يقاطعنى أحد . ثم قال الأمين العام : « أتحبون أن توجهوا أسئلة للزميل « ليونهارد » ؟

— ما هى الأنشطة الاجتماعية التى قمت بها ؟

— كنت مدير تحرير مجلة الحائط فى المدرسة لمدة سنة كاملة ، وعضوا فى هيئة تحرير مجلة الحائط فى بيت الطلبة لمدة سنتين .

— كيف يبدو تحصيلك الدراسى ، ماذا تعلمت ، وكيف ؟

— التحقت بالفصل السادس فى العام الدراسى ٣٥ — ١٩٣٦م ، نجحت بدرجة مقبول فى الفصل التسع ، أما فى الفصل السابع والثامن فنجحت بدرجة جيد فى معظم المواد .

لم يؤخذ على ضعفى فى شهاداتى الدراسية فى ٣٧ — ١٩٣٨ م ، فقد كانت حالة عامة عند كل التلاميذ فى سنوات التطهير ، اذ كانت النتائج عموما سيئة .

— هل قرأت تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ؟

— نعم ! ومستعد للاجابة على أى سؤال يوجه الى فى هذا المجال .

لم يوجه الى أحد منهم سؤالا ، ويبدو أنهم لم يكونوا معتدلى المزاج للدخول فى هذا الموضوع الذى أصبح بالنسبة لهم منفرا ، وداعيا للاشمئزاز . وبدل أن يوجهوا الأسئلة فى تاريخ الحزب الشيوعى ، تتناطرت أسئلتهم حول منظمة الشباب ، وكانت اجابتى طبقا لما جاء فى اللائحة . فأهم واجبات عضو منظمة الشباب هى :

* أن يدرس مؤلفات « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » .

* أن ينمى معلوماته السياسية باستمرار .

* أن ينشر التعاليم « الماركسية اللينينية » بين جماهير الشباب العريضة .

* أن ينفذ قرارات الحزب البلشفى وقرارات منظمة الشباب .

* أن يشارك بحماس ، ونشاط دءوب فى الحياة السياسية للدولة .

* أن يكون نموذجا يحتذى به فى المواقف الاشتراكية .

* أن يحافظ على الممتلكات الاشتراكية ، ويتصدى لمن يعتدى على نظام الدولة الاشتراكى .

* أن يكون نفسه علميا ، وتكنولوجيا ، ويساهم فى الحياة الثقافية .

* أن ينمى نفسه جسمانيا ، وذلك بممارسة الرياضة البدنية .

* أن يكون دائما مستعدا لبذل ما لديه من قوة — وفى حالة الضرورة يضحى بحياته فى سبيل الدفاع عن « الوطن الاشتراكى » .

* أن يساهم بجد واخلاص فى جميع أنشطة « الكمسمول » ، وأن يحضر اجتماعاتها بانتظام .

* أن ينفذ كل ما تسنده اليه المنظمة برباطة جأش ، وبسرعة ودقة .

* أن يبدأ عمل ما يسند اليه فى ساعة الصفر المحددة له ، ولا يتوقف حتى يحقق ما رسم له ، ويصل به الى نهايته .

— ما هى شروط القبول فى « الكمسمول » ؟

— يقبل فى « الكمسمول » الشـــاب الذى تتوفر فيه الشروط الآتية :

* ألا يقل سنه عن ١٦ ولا يزيد عن ٢٦ عاما .
* أن يكون مؤمنا بالنظام الأساسى لها ، وأن يعترف بلوائحها .
* أن يكون له نشاط فى احدى منظماتها التى تخضع للوائحها .
* أن يقدم طلبا للالتحاق ، يتعهد فيه بأن يدفع اشتراكات العضوية بانتظام .

— ما هو نوع النظام الذى تدار به « الكمسمول » ؟

— نظام المركزية الديمقراطية ، فالمراكز القيـــادية بالانتخاب ، وتخضع القيادات الصغيرة لمن هو أعلى منها ، كذلك تخضع الأقلية لرأى الأغلبية ، بعد أن تضع تقاريرها أمام هيئة « الكمسمول » .

فقال الأمين :

حسنا ! هذا كاف . سؤال آخر ؟

وساد الصمت لحظة ، أردف بعدها الأمين قائلا :

اذا لم يكن هناك أسئلة ، فلننتقل الى عملية أخذ الأصوات .

فمن يوافق على قبول السيد « ليونهارد » فى « الكمسمول » ، ويزكيه يرفع يده .

فرفع كل الحاضرين أيديهم . ولم تنته اجراءات قبولى بهـــذا التصويت اذ قيل لى أن طلبى سوف يرسل الى لجنة « الكمسمول » الموجودة فى الحى حيث أسكن ، وستصلنى أخبار من هناك ، وعندها يجب أن أذهب الى لجنة الحى فى الوقت الذى تحدده لى .

طلبتنى لجنة الحى للمثول أمامها بعد أسبوعين تقريبا ، وسألنى أمين اللجنة بعض الأسئلة ، وتحدث معى عن الشرف الذى يناله المرء اذا التحق « بالكمسمول » وعن الثقة التى وضعوها فى عند موافقتهم على عضويتى . ثم تطرق الحديث الى شرح الواجبات الملقاة على عاتقى . لأكون عند حسن ظن من وثقوا بى ، ثم قدم لى — بطريقة رزينة تعلوها سيماء السرور — الكتيب الرماذى بعنوان: (WISKM)

(Wososjusnij Loninskij Sojus Kommunistitschokoj Molodjoshi)

وعندما أجبته بأننى سوف أبذل كل ما فى وسعى لأقوم بما تحتمه على هذه الثقة ، استعملت فى حديثى الأساليب المعروفة التى يجب على عضو شيوعى التعبير بها فى مثل هذا المجال . وقلتها بحماس وعن اقتناع بما أقول . وربما يبدو هذا غريبا للقارىء الغربى ، فأمى مقبوض عليها ، ورأيت بعينى عمليات القبض على مدرسين نشأت بينى وبينهم عاطفة أبوية ، وقاسيت الكثير عندما كان يختفى أصدقائى واحدا بعد الآخر من جراء ما تقوم به سلطات الأمن ، وغنى عن البيان أننى لاحظت أيضا أن الحقائق كانت شيئا آخر مغايرا لما تنشره جريدة « برافدا » ، ولكن كيف أفصل عن هذه الأشياء وكذلك انطباعاتى الشخصية ، وما قاسيته فى سنى اقامتى فى الاتحاد السوفييتى عن عقيدتى السياسية . لقد بدا لى أن هناك فصلا بين ناحيتين فى الأحداث ، أولهما يتعلق بالمرء ، وما يصيبه من جراء سلطات الأمن ، وتلك كانت محلا للنقد والاعتراض ، والأخرى تتعلق بالخطوط العريضة للمبادىء التى كنت أؤمن بها ، وكانت فى نظرى آنذاك — رغم بعض التحفظات التى كانت تثير الشك فى نفسى أحيانا — سليمة لم يجانبها الصواب .

أعتقد أن كثيرا من أعضاء « الكمسمول » ، فصلوا أيضا بين هذين المستويين وكان هذا النوع من التفكير منهجهم ، وأنا متأكد أن بعض الشباب لم يلتحق « بالكمسمول » عن اعتقاد بمبادئها ولا عن ايمان بنظمها ، وقد وضحت لى هذه الظاهرة بعد التحاقى بوقت قصير ، عرفت ذلك عن طريق اشتراكى فى الجلسات والاجتماعات بصفة مستمرة ، وسرعان ما تعرفت من خلالها على أنواع مختلفة من الشباب ، الذين يمكن أن يقسمهم المرء — حسب رأيى — الى أربع مجموعات :

١ — « المتحمسون » وهم شباب يافع يفيض نشاطا وحيوية ، يبذل كل وقته فى عمل « الكمسمول » ويتفانى فى القيام بما يسند اليه عن طيب خاطر ، فهو مطيع ، يضحى بكل ما يملك . ولكن هؤلاء الأعضاء لا يفكرون فى المشاكل السياسية ، ولا يظهر عليهم أنهم يلاحظون التضارب فى سياسة الدولة والحزب ، ولا يدركون التحول السياسى المفاجىء . لقد كان « الكمسمول » بالنسبة الى هؤلاء الفرصة الوحيدة لممارسة ما يحتاج اليه الشباب فى مثل هذا العمر . وكان رأيى فى تحليل موقف هؤلاء ، أنه لو كانت هناك منظمة أخرى تختلف عن

« الكمسمول » عقيدة ومذهبا لما ترددد هذا النوع من الشباب فى الالتحاق بها • فلا يهمه ان كانت المبادىء متجهة يمينا أو يسارا •

٢ — كان هناك نوع آخر من الشباب — وكنت واحدا منهم آنذاك — دخل المنظمة عن اقتناع سياسى ، شعر بأنه مشدود اليها ، فقد أثر فيه الجهاز التنظيمى والمناقشات السياسية • كان هؤلاء نشطين أيضا ، وان كان نشاطهم لا يرقى الى درجة نشاط المنحمسين ، فقد لاحظوا بعض المتناقضات ، وكان يعتريهم أيضا حالة من التردد ، وامعان التفكير جديا فيما يدور حولهم من أحداث ، غير أنهم حاولوا — بطريقة أو بأخرى — تذليل ما يصادفهم من متناقضات ليهدأوا نفسيا •

٣ — « النفعيون » وقد لاحظت أن هذا الصنف — بنوع خاص — من أبناء وبنات قادة الحزب والدولة ، ورؤساء المؤسسات الاقتصادية ، فهم يريدون الوصول الى المراكز العليا — ولا يخفون مقصدهم ، بل يعبرون عنه بشكل سافر — ووجدوا أن « الكمسمول » سلم يستطيعون الوثوب عليه كى يتمكنوا من الوثوب بقفزات واسعة ليتبوأوا الوظائف العليا الحساسة فى الدولة والحزب •

٤ — قابلنى نوع من الشباب حيرنى أمره ، فليس لديه أدنى اهتمام بما يجرى فى المنظمة ، لذلك أطلقت عليه « مجموعة اللامبالين بطبعهم » فهم شبان لم يخطر ببالهم يوما ما أن يلتحقوا « بالكمسمول » وانما دفعتهم الظروف الى الدخول فى المنظمة تقليدا لأصدقائهم ، أو لعب القدر دورا فى التحاقهم بالمنظمة دون أن يكون لهم أدنى مجهود فى ذلك • ومعظم هؤلاء من البنات •

استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعتقد أننى الوحيد الذى يعتنق هذه الأفكار التى تعتبر زندقة وكفر بالنظام السوفييتى ، لكنى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان وارتفعت الكلفة بيننا فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتنق مثل هذه الأفكار •

وضحت الأمور لى شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذا اضطرتنى

الظروف الى عدم ذكر شيء أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعنيهم حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم فى مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض • اعترف لى أحد هؤلاء بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التى تعتنقها الدولة • وتعرفت على آخرين كانوا ماركسيين ولينينيين اعتنقوا تعاليم ماركس وقدسوها ، أما اليوم (أيام لقاء المؤلف بهم فى المنظمة) فيقفون مع الجبهة المعارضة للنظام فى كثير من المسائل والمبادىء الأساسية ، وهم بنوع خاص ضد السلطة المطلقة التى تتمتع بها مخابرات أمن الدولة فى وزارة الداخلية ، وضد حركة التطهير التى ذهب ضحيتها الزعماء البلشفيين القدامى •

قرأ على أحد أعضاء المنظمة قصيدة شعر — كتبها بخط يده ، ونسخها الكثير واحدا بعد الآخر — كانت ثورية فى تمجيد الحرية والتغنى بفضائلها • وسمعت فيما بعد أن أحد الشبان المعارضين كتب قصة بخط يده ، ونسخها الآخرون لأنها تصور لهم ما يدور فى ذهنهم من معارضة لنظام الحكم وكانت بعنوان « رحلة جوليفير » الى بلد للهواء فيه آذان •

* * *

مفاجأة فى حرب فنلندا

قرأنا فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ فى جريدة « برافدا » أن فنلندا رفضت عرضا من الاتحاد السوفييتى لعقد معاهدة دفاع مشترك • ثم قيل لنا ان اتحاد الجمهوريات السوفييتية عرض على فنلندا أن تنقل الحدود عند « لينينجراد » مسافة ٣٠ ك•م • وهو مستعد أن يتنازل لفنلندا فى مقابل هذا عن خمسة أضعاف هذه المساحة •

ظهر لى موقف فنلندا فى بادىء الأمر غير مفهوم ، لأنى لم أسمع أخبارا أو تحليلا حول هذا الموضوع من مصدر آخر ، كما لم يعرف كل المواطنين السوفييت « البعيدين عن السلطة » سوى ما كتبته « برافدا » ، ولم أعلم شيئا عن المناقشات التى دارت فى البرلمان الفنلندى ، ولا عن موقف غرب أوربا وأمريكا ازاء هذه المسألة • ولم يكن عندى — بنوع خاص — أية فكرة عن خوف الشعب الفنلندى من أن المعاهدة ستكون بداية لنهاية استقلال فنلندا ، كما أكد ذلك ما حدث بعد أشهر قليلة فى « استلاند » و « ليتلاند » و « ليتاون » •

ازدادت نغمة « برافدا » ضد فنلندا حدة ، فلم تعد تذكر فى النصف الثانى من أكتوبر اسم الحكومة الفنلندية ، بل تصفها بالمراهقين الفنلنديين ، والمغامرين ، والمقامرين ، ونعتت أسماء الشخصيات الفنلندية المتزنة بأوصاف السخرية والاستهزاء .

وانفجر الموقف فى ٢٩ نوفمبر ، اذ عبرت القوات الروسية الحدود الفنلندية ، وزعم فى بلاغ رسمى ، أن القوات الفنلندية قامت بسلسلة من الأعمال الاستفزازية عبر الحدود السوفييتية . ولكن لم يؤخذ الموقف مأخذ الجد ، حتى من أعضاء الحزب « المخلصين » . فاذا استعمل المرء فى حديثه معهم التعبيرات الرسمية عن « الاعتداء الفنلندى » كانوا يعلقون على هذا فى غالب الأحيان بغمزة العين المعروفة ، وقد لاحظت استعمال هذه الاشارة كثيرا فيما بعد .

أعلن بعد أيام قليلة من بدء الحرب الفنلندية الروسية عن استيلاء الجيش الروسى على المدينة الفنلندية الأولى « توريوكى » وعن تكوين حكومة فنلندية شعبية برئاسة « كوزينين » وأصدرت الحكومة الجديدة نداءات الى الشعب الفنلندى ، ووضعت كذلك شكل الأعلام التى سترفعها القوات المكلفة بالزحف على « هلسنكى » .

اصطدمت القوات الروسية — بعد التقدم السريع الذى حققته فى بادىء الأمر باستيلائها على مدينة « تريوكى » — بدفاعات الجيش الفنلندى أمام خط « مانرهايم » ، وسمعنا الكثير عن الخسائر التى تكبدتها ، اذ تحولت « الحملة الصغيرة لقوات منطقة « لينينجراد » — كما وصفوها — الى حرب . وكان من الصعب علينا أن نتصور ، أن الجيش الروسى الكبير ، ذا الشهرة الذائعة بأنه الذى لا يقهر ، والذى وصفته لنا دوائر الاعلام والدعاية السوفييتية بأنه أقوى جيش فى العالم ، هذا الجيش يقف الآن فى حرب ضارية ضد فنلندا لصغيرة التى لا يتجاوز تعدادها ثلاث ملايين ونصف نسمة .

كان تعثر القتال على الجبهة أسابيع عدة بالنسبة لنا غريبا ، وأشد منه غرابة ارتباك وسائل النقل والمواصلات ، واختفاء المواد التموينية ، ففى أيام الحرب الأولى كانت قطارات الركاب تتأخر بالساعات ، وبعضها لم يصل على الاطلاق . وبعد بدء الحرب بأيام قليلة كنت أرى فى موسكو الطوابير الطويلة أمام محلات الخبز ، واختفت بعض السلع ، لأنها لم تورد للمحلات .

تساءل الناس آنذاك فى موسكو :

اذا أدى الأمر فى اصطدامات محلية مع بلد صغير الى ارتباك فى ادارات الدولة ، ونقص فى المـواد التموينية ، فماذا يحدث لو اضطر الاتحاد السوفييتى الى الدخول فى حرب ضد احدى القـوى العظمى ؟ وعبر الناس عن خوفهم بكلمات هزلية انتشرت فى موسكو بطريق الهمس :

لم يصل شىء بعد ، ولن يصل .

وسوف يصل ، عندما يوجد .

مضت ثلاثة أسابيع على بدء القتال ، عندما انتشرت اشاعة تفيد بأن الحرب سوف تنتهى قبل يوم عيد ميلاد « ستالين » ، أى فى ٢١ ديسمبر ، ولكن جاء هذا اليوم ولم تنته ، ومضت شهور فصل الشتاء ، ونحن نقرأ كل يوم على الصفحة الأولى من « برافدا » فى جانبها الأيسر ، بلاغات القوات العسكرية لمنطقة « لينجراد » ، ولم تتحدث هذه البلاغات الا عن هجوم القوات السوفييتية على « نقط حصينة » ، غير أنها لم تذكر فى أى منطقة ، لأن الجيش عاجز عن الاستيلاء على مناطق ، يمكن ذكرها فى البلاغات .

وعلى الرغم من أن الحرب لم يكن لها تأييد شعبى ، فان كثيرا من أصدقائى كانوا يعتقدون — وكنت أوافقهم فى هذا — أن القتال سوف يستمر حتى تحقق القوات السوفييتية نصرا حاسما . وأخيرا وصفت حكومة شعبية فنلندية جديدة أعضاء حكومة فنلندا الشرعية بأنهم قتلة ، وقطاع طرق ، وفاشيين ، وأنهم — أى أعضاء الحكومة الشعبية — يعتقدون أن الاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يتفاوض مع هؤلاء اطلاقا .

بلغت دهشتنا ذروتها ، عندما تم فجأة فى ٢١ مارس سنة ١٩٤٠ توقيع معاهدة سلام مع فنلندا . وطبقا لهذه المعاهدة حصل الاتحاد السوفييتى على منطقة « مضيق الكاريلى » ومدينة « فيبورج » ، كما عدلت الحدود فى بعض المناطق لصالح الاتحاد السوفييتى ، كذلك استأجر نصف جزيرة « هانجو » كل هذه المكاسب أقل بكثير مما كان متوقعا عند بدء الحرب .

عقدت الحكومة السوفييتية معـاهدة سلام مع نفس الزعمـاء

الفنلنديين الذين وصفتهم « برافدا » قبل بضعة أسابيع بأنهم مغامرون ، ومقامرون . ثم عقد فى كل مكان — كما هى العادة — اجتماعات جماهيرية .. حيث شرح للشعب أن انهاء الحرب دليل على سياسة الاتحاد السوفييتى السلمية ؛ وبرهان على أن قائده « ستالين » لا يريد سوى السلام ، وكما هو متبع فى كل الاجتماعات أعلن أن المتحدثين مستعدون للرد على أى سؤال يوجه من المواطنين . وكان هناك فى هذه المرة أسئلة :

سمعت طالبا يسأل : سيدى المتحدث ، هناك شىء غير واضح لى ، منذ بضعة أشهر قامت حكومة شعبية فى فنلندا ، ولكنها لم تذكر اطلاقا فى توقيع اتفاق السلام . ماذا حدث لهذه الحكومة الشعبية ؟

أسقط فى يد المتحدث ، وبدا عليه الارتباك حين قال :

« لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال الآن ، لأن المرء لا يجد شيئا فى البلاغات الرسمية عن هذا الموضوع ، غير أن من المؤكد أن حكومتنا السوفييتية ستأخذ على عاتقها اتخاذ الخطوات اللازمة فى هذا الخصوص » .

وعلمت من صديق يعمل فى مصنع أن هذا السؤال طرح هناك أيضا أمام المتحدثين ، ولكن المتحدث الذى ينتمى الى طبقة العمال أجب عليه اجابة تتسم بالبساطة :

« آه ! هذا صحيح ! الحكومة الشعبية ! أين ذهبت ؟ لم يقولوا لنا عنها شيئا على الاطلاق فى اجتماع التثقيف السياسى » .

ذكر ظهور هذا السؤال فى معظم الاجتماعات الجماهيرية فى احدى المقالات المنشورة فى « برافدا » ، وكان ذلك بعد بضعة أيام من تاريخ هذه الاجتماعات ، بين الكاتب فيها أن توقيع المعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا أرسى قواعد علاقات طيبة ، وفتح صفحة جديدة ، ولهذا حلت الحكومة الشعبية نفسها .

وبهذه الجملة القصيرة اختفى اسم الحكومة الشعبية عن الوجود فالحرب قد انتهت ، ولم يعد يذكر شىء منها الا نادرا ، وهذا طبيعى ، لأن الحرب السوفييتية الفنلندية التى جرت أحداثها فى عامى ٣٩ / ١٩٤٠ كانت أكبر هزيمة للاتحاد السوفييتى سياسيا وعسكريا .

تحدثت بعد انتهاء الحرب مع بعض أصدقائى الذين كنت أتبادل

معهم الأفكار بحذر أثناء فترة حركة التطهير ، فذكر كل منا سببا لهزيمة القوات السوفييتية :

« لم يكن الجيش الأحمر مستعدا لهذه المعركة » .

« كان تقدير القوة العسكرية لفنلندا أقل بكثير من حالتها الحقيقية »

« لم تكن الرغبة السياسية فى تكوين حكومة شعبية سليمة فى جوهرهـــا » .

« ان القبض بالجملة على الجنرالات والرتب العليا والمتوسطة فى الجيش فى حركة التطهير التى شهدتها البلاد أصاب الجيش فى الصميم ، وتركه هزيلا » .

لازلت أعتقد أنه يجب البحث عن الأسباب الحقيقية لنكسة القيادة العسكرية فى فنلندا فى عامى ٣٩ / ١٩٤٠ م .

سمعت تفسيرا عجيبا بعد مضى سنوات عديدة — عندما ألقيت رحالى فى الغرب — يقول هذا التفسير : ان الاتحاد السوفييتى قاد الحرب فى فنلندا بطريقة تظهر ضعفه ، وكان متعمدا ذلك ، كى يضلل القوى الأجنبية ، فى اعطائهم صورة غير حقيقية عن القوات العسكرية السوفييتية ، امعانا فى اخفاء قوتها الحقيقية عنهم . وانى أرى أن هذا التفسير باطل من ألفه الى يائه ، لأنه لم يحـــدث أن الاتحـــاد السوفييتى كان حريصا على اظهار قوته ، مثل حرصه فى ذلك الوقت لأن الحرب اندلعت فى أوروبا منذ وقت قصير ، وهو يريد أن يظهر كحليف قوى لألمـــانيا الهتلرية ، وكان مهتما فى هذا الوقت أكثر من أى وقت مضى بانتزاع الاعتراف به كقوة عظمى ، قادرة على الردع ، وباقناع الآخرين ، بأنه يقف على قدم المساواة مع حليفه ألمـــانيا الهتلرية ، وبتقوية مركزه — كقوة عظمى لم يشترك فى الحرب العالمية آنذاك — للدعاية لنفسه كى يحصل على امتيازات من وراء ذلك .

ومما يدل دلالة واضحة على أن الحرب الفنلندية أظهرت ضعف الجيش الأحمر ، — وكان هذا هو الحقيقة ، وليس اظهار الضعف عن عمد كما يدعون — بدء اعادة تنظيم الجيش على نطاق واسع بعد نهاية الحرب بأسابيع قليلة ، اذ لم يتهيبوا اخراج الضباط من السجون ، واسناد قيادة الوحدات اليهم .

عزل « فوروشيلوف » فى أوائل مايو سنة ١٩٤٠ بعد ما تولى أمانة الدفاع الشعبى سنين عدة ، وحل محله الماريشال « تيموشينكو » •

أنشئت رتب جديدة فى قيادة الجيش الأحمر ، والأسطول ، وفى أوائل يوليو شددت العقوبة على الهاربين من الخدمة العسكرية ، وعلى المتهاونين فى أداء الواجب ، فالتحية العسكرية لا يتهاون فيها ، وتوقيع العقوبة — بالحجز ، أو منع الأجزات أو ••• أو ••• — أمر يجب على كل مسئول أن ينفذه حرفيا • وهذا يعنى أنه يجب أن يسود الضبط والربط •

وأخيرا ألغيت فى خريف عام ١٩٤٠ م لائحة النظام والقانون العسكرى التى كانت تطبق فى الجيش منذ عام ١٩٢٥ م ، ووضعت لائحة جديدة أشد وأقسى منها ، ففيها — مثلا — وجوب طاعة المرؤوس — أيا كانت رتبته — لرئيسه ، واعتبار عدم طاعة الأمر من أكبر الذنوب التى لا تغتفر فى الجيش وأفحشها مهما كان سبب رفض الأمر •

لم تكن الفترة من ربيع عام ١٩٤٠ م حتى خريفه فترة التعديل الواسع الشامل فى قيادات ، وأنظمة الجيش الأحمر فحسب ، بل كانت تعتبر أيضا فترة الصداقة مع ألمانيا الهتلرية ، كما أكدت ذلك وسائل الاعلام والدعاية آنذاك •

* * *

موسكو أثناء تحالف ستالين وهتلر

كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لمعاهدة عدم الاعتداء التى عقدت فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ومعاهدة الصداقة التى عقدت فى ٢٨ سبتمبر من نفس العام ، هو خفوت رنينها ، فالناس فى الاتحاد السوفييتى — وأنا كذلك — تعودوا على « الوضع الجديد » ، وقد وقر فى نفوسنا — بصورة لا تقبل الشك — أنه لن توجد أقلام معادية للنازية : أو كتب تهاجمها • غير أن وسائل الاعلام استمرت تردد بفخر واعتزاز ، أن الاتحاد السوفييتى لم يتورط فى النزاع بسبب سياسته السلمية الحكيمة : وفى بعض الأحيان كانوا يصرحون — بطرق تختلف فى درجة وضوحها — بأن من الممكن أن تكون الحرب بين القوى الغربية العظمى وبين ألمانيا الهتلرية وايطاليا مفيدة للاتحاد السوفييتى ، وقد ظهرت أيضا أحاديث هزلية ، واستفسارات عن طريق اللعب بالألفاظ بين الناس حول مركز الاتحاد السوفييتى الممتاز ، بسبب عدم اشتراكه فى الحرب :

« حاول أن تخمن ! من سيكسب الحرب » وجه الينا هذا الكلام طالب فى المعهد ، يتولى أبواه مناصب قيادية فى الدولة ، وهو متعود أن يزودنا بألغاز وأحاجى — الغرض منها بطبيعة الحال الدعاية للاتحاد السوفييتى — لا تنشر فى الجرائد • ثم توجه هذا الطالب الى السبورة ، وكتب بالحروف اللاتينية أسماء زعماء الدول المشتركة فى الحرب آنذاك تحت بعضها :

« موســـولينى »
« هيتلر »
« تشامبرلين »
« دالادير »
« تشينج كاى شيك »
« مانرهـــايم »

ثم اتجه الينا ضاحكا فقال : والآن ! من سيكسب الحرب ؟
لقد كانت هذه بالتأكيد نكتة ، ولكن لم يحلهـــا أحد منا لأننا لم ندرك مقصده ، فقال الطالب :

« ان الاجابة فى غاية البساطة » ، وقبل أن ندرك مراده ، عاد الى السبورة ، ووضع كتابة الحرف الثالث من كل اسم ، ووضع تحته خطا ، ثم أشار الينا ضاحكا الى حل لم نكن نتوقعه •

انتشرت اشاعة منذ بداية عام ١٩٤٠ م تفيد بأن العلاقة مع ألمانيا سوف تتوطد أكثر ، ونقل الى الأسماع من هنا وهناك كلام حول قرب قيام كتلة حربية بين ألمـــانيا والاتحاد السوفييتى ، واعتقد ذلك آنذاك كثير من الناس فى موسكو •

وفى منتصف فبراير ١٩٤٠ م امتدحت وسائل الاعلام بحرارة ابرام اتفاقية اقتصادية بين ألمـــانيا الهتلرية والاتحاد السوفييتى ، وكتبت المقالات عن خطط انجلترا وفرنسا الاستعمارية للتحكم فى العالم ، ونشر الكثير من خطب « هتلر » وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٠ م — وعت ذاكرتى هذا التاريخ بدقة — فوجىء القارىء السوفييتى بأن صفحة كاملة من صفحات « برافدا » احتوت على موضوعين فقط ، فقرات طويلة من خطبة لهتلر ، ومقال تناول الموقف الشيوعى من الحرب •

نشطت الدعاية السوفييتية فى حملتها ضد انجلترا وفرنسا ، وحملتهما

مسئولية استمرار الحرب ، فقد كتبت « برافدا » فى أوائل مارس سنة ١٩٤٠ م تقـــول :

« مضت الآن ستة أشـــهر على الحرب الدائرة التى أشـــعلها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ، كى يدعموا تسلطهم ، واستبدادهم فى العـــالم . فعندما لم ينجح هؤلاء الاستعماريون فى تنفيذ مخططاتهم لتقسيم العالم من جديد ، فكروا فى وسيلة للخروج من هذا المأزق ، ولم يجدوا سوى العكوف على تدبير القيام بمغامرة يستهدفون من ورائها تطوير الحرب الاستعمارية الدائرة رحاها اليوم الى حرب عالمية جديدة » .

وانطلقت أجهزة الحزب تعمق هذا « الخط » الجديد لسياسة الدولة فى نفوس الجماهير السوفييتية فى اجتماعات شعبية لا حصر لها .

ونشرت صحيفة « برافدا » فى أوائل ابريل فقرات طويلة من كتاب حكومة هتلر وكان بعنوان « الكتاب الأبيض لوزارة الخارجية » ، وعلقت على ما جاء فى هذه الفقرات مؤيدة لهـــا ، وموافقة على مضمونها . كذلك بررت هجوم « هتلر » على الدانمارك والنرويج ، فقالت : « كانت الاجراءات التى اتخذتها ألمـــانيا فى هذه الحالة اجراءات ضرورية ... هم يدعون أن ألمـــانيا خرقت القانون الدولى بعملياتها العسكرية فى البلاد الاسكندنافية ، ومزقت معاهدة عدم الاعتداء مع الدانمارك .... ولكن اليوم ، وبعد أن اعتدت انجلترا وفرنسا على حريـــة البـــلاد الاسكندنافية ، للاضرار بمصالح ألمـــانيا ، اقتضى الأمر أن تتخذ ألمـــانيا اجراءات مضادة . ولا يدل تباكيهم حول شرعية أو عدم شرعية العمليات العسكرية الألمانية الا على انزلاقهم الى مواطن السخرية والاستهزاء » .

والى هنا أصبح واضحا وضوحا لا شك فيه أن الخط الرسمى للدولة ، لم يعد ينتهج سياسة الحياد المطلق ، بل يقترب رويدا رويدا من موقف ألمـــانيا الهتلرية ، فسياسة الحياد استمرت عموما فى الأسابيع الأولى عقب توقيع المعاهدة ، أما التغيير الذى طرأ على الموقف الآن فقد بعث شكوكا فى نفوس الكثيرين . دفعت الشجاعة طالبا فى احدى المعاهد العليـــا فى موسكو أن يصرح علنا بما اعتراه من شك فيما طرأ على سياسة الدولة تجاه الحرب ، وحدث هذا فى محاضرة ماركسية لينينية تحت عنوان : « شرعية وعدم شرعية الحرب » . بين المحاضر الفرق بين الحرب الشرعية ، وغير الشرعية على الوجه التالى :

« الحرب الشرعية لا تكون للغزو ، وانما هى حرب تحريرية ، هدفها الدفاع عن الشعب ضد الاعتداء الخارجى ، أو ضد محاولة الضغط عليه من الداخل ، بمعنى تحرير الشعب من عبودية رأس المال أو تحريره من تحكم الاستعماريين • أما الحرب غير الشرعيه . فهى على الضد من هذا ، حرب غزو ، تستهدف السيطرة على بلاد أجنبية ، واستعباد الشعوب الأخرى » • ثم حلل عددا من الحروب المعروفة فى التاريخ ، واختتم محاضرته بالاشارة الى أن من واجب الماركسية اللينينية تحليل الحروب دائما ، ثم بيان موقفها من الحرب المعاصرة • وكما هو متبع أعلن المتحدث بعد انتهاء محاضرته استعداده للاجابة على أسئلة الطلبة ، ثم أعطيت الكلمة لأحد الطلبة ليقول سؤاله :

« أيها الزميل المحاضر ! منذ بضعة أيام بدأت قوات ألمانيا عمليات عسكرية ضد الدانمارك والنرويج ، وهى خطوة ضرورية ضطرت ألمانيا اليها ، كما نشرت ذلك « برافدا » • ما هى طبيعة هذه العمليات العسكرية ؟ هل يمكن أن نسميها حربا شرعية ؟ وهل تكون الحرب — اذن — من جانب قوات الدانمارك والنرويج حربا غير شرعية ؟

ساد القاعة صمت رهيب ، وخيل الى أن تنفس الحاضرين قد توقف ، فقد كان السؤال سهما فى مقتل المحاضر ، ولكنه اعتقد أنه أخرج نفسه من المأزق ، عندما قال : « لا يجوز أن ينظر الانسان الى الأمور نظرة رياضية . واحد + واحد = ٢ ، بل يجب علينا ألا ننسى الظروف والملابسات ، فتصنيف الحرب فى هذه الحالة الى شرعية وغير شرعية تعبير خاطىء وغير علمى . ولا يمكن الاجابة عليه بهذه الصيغة •

بينما تطرق الينا نحن الطلبة — وكذلك بالتأكيد الى طبقات الشعب الأخرى — بعض الشك فى صحة « هذا الاتجاه لسياسة الدولة » ، لاحظت مندهشا أن موقف الدولة ازاء ألمانيا الهتلرية أثر من ناحية أخرى على تفكير المواطن السوفييتى ، فعندما وقفت يوما قبل الظهر أمام أحد أكشاك بيع الصحف ، سمعت اثنين — يبدو من هيئتهما أنهما من طبقة فقيرة — يتحدثان عن الحرب فى أوروبا الغربية ، قال أحدهما :

« هتلر •• ولد جدع » ، انظر ! كيف أعاد النظام الى أوروبا !

فقال الآخر مؤمنا على كلامه :

« يضرب الاستعماريين الانجليز والفرنسيين ، ويذك عظام دعاة الحرب » .

وسمعت مرة أخرى هذا السؤال :

« أصحيح أن هتلر أقام معسكرات الاعتقالات التى نسمع عنها ، أم أن المسألة كذبة دعائية أطلقها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ؟

لم ألتق آنذاك بالمنفيين الألمانيين الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى الا نادرا ، وشاءت الظروف يوما أن أتحدث مع الشاعر الشيوعى « ايريش فاينرت » الذى صار فيما بعد عضوا فى اللجنة المركزية للتنظيم القومى الذى أطلق عليه « ألمانيا الحرة » لقد كنت صديقا لابنته « مارينا » منذ طفولتى فى برلين ، وكنت أزورها فى المنزل الجديد للكاتب الواقع فى « لافروشنسكى برويلوك » عندما دخل « ايريش فاينرت » الحجرة علينا ، سألته عن رأيه فى الموقف بصفته ألمانى يعارض الفاشية ، فتحدث « ايريش فاينرت » — الذى كنت أحس أنه انسان لطيف جدا — عن « موقف مغاير تماما ! » ، عن « الالتزام بواجب جديد ! » ، عن « رؤية جديدة » مغايرة تماما لما كنا نفكر فيه قبلا ، ثم قال :

« ربما تكون معاهدة عدم الاعتداء — وكذلك معاهدة الصداقة المعقودة فى سبتمبر ١٩٣٩ — هى البداية فقط ، فنحن نتوقع — ويكاد يكون ذلك مؤكدا — قيام تعاون أوسع مع ألمانيا » .

كان هذا هو الرأى الذى سمعته مرارا وتكرارا فى النصف الأول من عام ١٩٤٠ ، فقد تحدث كثيرون آنذاك عن توقع قيام تحالف عسكرى مع ألمانيا الهتلرية ، حتى أن البعض أخبر أيضا عن توقع اشتراك فى العمليات العسكرية ضد « الامبريالية الغربية » .

وعندما بدأ الهجوم فى ١٠ مليو سنة ١٩٤٠ على بلجيكا ، وهولندا ، وفرنسا ، تابعت الجماهير فى موسكو أنباء القتال فى فرنسا باهتمام كبير ، اذ كان الناس يقفون فى طوابير أمام أكشاك بيع الصحف ، صابرين ، متحملين ألم انتظار جرائد الصباح أو لجريدة المسائية الوحيدة فى موسكو .

كان معظم الناس يقرأون الجرائد دون ابداء أى تعليق ، فقد تعلموا منذ حركة التطهير ، ألا يعلقوا على الأحداث التى تمس الخط السياسى للدولة من قريب أو بعيد ، غير أن هناك حالات نادرة —

لا زلت أذكرها — عبر فيها بعض الناس فى موسكو عن رأيهم بوضوح ، من ذلك أن أحد المثقفين قال لى يوما :

« أحدث هجوم هتلر على فرنسا تحولا فى صفوف المثقفين ، فطالما كانت الحرب محصورة فى بولندا ، والبلاد الاسكندنافية ، كان معظمهم محايدا ، والبعض كان متعاطفا بعض الشىء مع « هتلر » ولكن هجومه على فرنسا غير كل شىء رأسا على عقب ، اذ يظهر التنافر تدريجيا من « هتلر » ، وليس هذا ناشئا من تعاطفهم مع انجلترا ، بل من تأثرهم بمصير فرنسا المؤلم ، اذ أن كثيرا منهم يشعر بأنه مرتبط ثقافيا مع فرنسا بالذات • شعرت بتغيير مماثل بين صفوف الطلبة ، ولكننى لست متأكدا من أن هذا التحول قد ظهر أيضا آنذاك فى قطاعات شعبية أخرى •

طلعت علينا صحف موسكو فى صباح يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٠ م بأنباء استيلاء الجيش الألمانى على باريس ، فاشتريت الصحيفة ، وركبت الترام متجها الى ميدان « تاجانكا » وجلس بجوارى رجل متقدم فى السن ، يبدو من هيئته أنه فلاح ، جاء الى موسكو للزيارة • التفت الى هذا الرجل وسألنى : هل من جديد عن الحرب فى فرنسا ؟

فأجبته : استولت القوات الألمانية على باريس •

فصفق فرحا وقال : سيلقن « هتلر » الفرنسيين درسا لن ينسوه •

لفتت حركته ، وتعليقه انتباه الجالسين فى العربة ، ولكن لم يجد أى تعليق من أحد ، بل لم ينبس أحد ببنت شفة •

وبعد دقائق كنت أقف مرة أخرى أمام أحد أكشاك بيع الصحف ، فرأيت غلاما يبلغ الرابعة عشرة من عمره تقريبا — ويبدو من ملامحه أنه يهودى — يقرأ الجريدة وهو فى غاية الاضطراب ، ويردد بصوت حزين « سقطت باريس •• سقطت باريس ••• » وتساقطت الدموع من عينيه • ثم أسرع الى بيته ، ربما ليخبر والديه بالأنباء المفجعة ، هكذا كانت ردود الفعل مختلفة من شخص لآخر آنذاك فى موسكو •

ثم الاهتمام بأنباء القتال فى مرحلة انتهاء القتال فى فرنسا ، وبداية الغارات الجوية على بريطانيا ، لأن الحوادث الداخلية — التى انفجرت فجأة بطريقتها المعهودة — باغتت الشعب كله ، واحتلت المكان الأول فى الصحف ووسائل الاعلام الأخرى شهورا عديدة •

نشرت « برافدا » فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤٠ على صفحتها الأولى نداءا من اللجنة المركزية لنقابة العمال السوفييت تقترح فيه أن تزاد

ساعات العمل فى المصانع والشركات من ٧ الى ٨ بالنسبة للعمال ومن ٦ الى ٨ ساعات بالنسبة للمستخدمين • كذلك تزاد ساعات عمل الأحداث الذين تتراوح أعمارهم من ١٦ الى ١٨ ، من ٦ ساعات فى اليوم الى ٨ ساعات •

كذلك اقترحت أن تكون أيام العمل الأسبوعية ٧ أيام — كما هو مطبق فى جميع أنحاء العالم — بدلا من ستة ، وهو النظام الذى كان مطبقا فى الاتحاد السوفييتى حتى ذلك الحين (١) •

لم يقتصر زعماء نقابة العمال على المطالبة بزيادة ساعات العمل ، وزيادة عدد أيام العمل الأسبوعية فقط ، بل اقترحوا أيضا الغاء حرية اختيار أماكن العمل ، ونص هذا بالحرف الواحد :

« ترى اللجنة المركزية لنقابات العمال السوفييت أن لعمال مجندون فى ادارات الدولة ، وشركاتها ، ومؤسساتها الاشتراكية ؛ ولذا فلا يجوز أن يترك العامل عمله ، أو ينتقل من شركة الى أخرى ، أو من موقع عمل الى آخر » •

ومن الطبيعى أنه كان واضحا أن الدولة ستضع « اقتراحات » اللجنة المركزية لنقابة العمال فى صورة تعليمات — وقوانين — واجبة التنفيذ ، بل نشرت فى اليوم التالى التعليمات المطابقة لهذه الاقتراحات ، ثم جاءت بعدها « المظاهرة » المصطنعة التى وافق فيها الحاضرون على المقترحات بالاجماع •

أصبحت القواعد التى « اقترحتها » نقابة العمال — زيادة ساعات العمل الى ٨ ساعات ، وتحويل الأسبوع الى ٧ أيام عمل ، وتحريم ترك أماكن العمل — قوانين ، أصدرتها رئاسة مجلس السوفييت الأعلى ؛ فقد صاغت المادة الخامسة — مثلا — اقتراح تحريم ترك العمل على النحو التالى :

« يقدم العامل — أو الموظف — الذى يترك عمله بدون عذر قهرى ، الى المحاكمة ، وتعاقبه محكمة الشعب بالحبس مدة لا تقل عن شهرين ولا تزيد عن أربعة أشهر » •

---

(١) اختلف نظام العمل حتى ذلك الحين فى الاتحاد السوفييتى عنه فى كل البلاد الأوروبية الأخرى ، فقد كان خمسة أيام عمل ، ويوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، ولهذا أطلق عليها : هذا يوم عمل ، وذلك يوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، وطبقا لهذا الاقتراح بطل هذا التعريف فأصبح اليوم الأول ، واليوم الثانى ••• الخ •

لم تهدد بعقوبة الحبس العمال فقط ، بل مديرو المؤسسات أيضا ، اذا لم يكونوا حازمين فى ادارة ما يوكل اليهم ، أو أهملوا فى معاقبة من يخالف التعليمات .

على الرغم من أن هذه التعليمات والقوانين لم تتعلق بنا مباشرة ، فقد انعقد عندنا — نحن طلبة الدورة التجهيزية — اجتماع شعبى لمناقشة هذا القانون ، بعد أن نشرته الصحافة ، ومما قيل فى هذا الاجتماع أن هذا القانون — الذى صدر فى ٢٦ يونيه — يعتبر بالنسبة لنا أيضا — نحن الطلبة — المنهج الصحيح لرفع مستوى التحصيل الدراسى ، فنحن « نوافق » عليه بالاجماع .

ولم تمض مدة قصيرة حتى أضيفت اليه اضافات أقسى وأشد ، فقد قرر المدعى الاشتراكى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٤٠ أن من يتأخر عن العمل عشرين دقيقة ، لا يقبل له عذر فى هذا التأخير ، بل يعاقب طبقا لما جاء فى « لائحة نظام العمل » ، بخصم ٢٥ ٪ من مرتبه مدة قد تصل الى ستة أشهر .

ولا زال هذا القانون القاسى ضد العمال ساريا المفعول حتى اليوم .

أحدث « قانون الـ ٢٠ دقيقة » آثارا فظيعة ، فقد علمت من التلاميذ الذين كانوا يسكنون معنا فى بيت الطلبة السابق ، ويشتغلون الآن فى مصانع ، ما يحدث هناك من مآسى ، فالمواصلات كانت سيئة لدرجة أن بعض العمال كانوا يتأخرون عن أعمالهم أكثر من عشرين دقيقة ، ولم تنفعهم أى حجة فى رفع العقاب عنهم ، فمديرو المصانع أنفسهم يرتعدون خوفا من توجيه الاهمال اليهم فى تنفيذ قوانين العمل ، ولهذا قدم العمال بالجملة الى المحاكمة ، وكان عدد من يعاقب طبقا « للائحة نظام العمل » مستمرا فى الارتفاع بشكل رهيب .

انتشرت فى موسكو — على الرغم من فظاعة الوضع ، وجدية الموقف — نكتة عن هذا القانون :

— هل سمعت أن المسرح الكبير قد شبت فيه نارا ، التهمته عن آخره ، فأصبح رمادا ؟

— كيف حدث هذا ؟ ألم تستطع المطافىء أن تحصر الحريق ، فتحول دون هذا الدمار ؟

— لا ، فالمطافىء فى السجن .

— فى السجن ؟

ـــ نعم ، لقد حضرت متأخرة عشرين دقيقة ، فلم يسمح لها بمباشرة اطفاء الحريق ، بل زج بها فى السجن ، تنفيذا لمـــا جاء فى « لائحة نظام العمل » فى عقوبة من يتأخر عن العمل •

سببت موجات القبض ، واجراءات المحاكمة تنفيذا لقانون العمل الجديد ارتباكا فى المحاكم ، فلم تعد قادرة على انهاء هذا السيل الجارف من القضايا ، ولهذا رؤى طبقا لمنشور الرئاسة الصادر فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ م أن تقوم المحاكم الشعبية وحدها باجراءات المحاكمة ضد المخالفين « للائحة نظام العمل » دون الرجوع الى هيئة محلفين •

احتلت هذه الأحداث مكان الصدارة فى حياة المواطن السوفييتى لدرجة أنه لم يهتم بمتابعة الأحداث الأخرى ، بسقوط فرنسا ، والغارات الجوية على بريطانيا ، واحتلال القوات السوفييتية لدول البلطيق ، ودخولها فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية ، وضم ولاية « بسارابيا » والجزء الشمالى من « بوكوفينا » الى الاتحاد السوفييتى ، ضاعت كل هذه الأحداث فى دوامة الاجراءات الداخلية ، اجراءات « محاربة المتعطلين ، والكسالى المهملين ، والمدمرين للنظام » •

لا زلت أذكر حدثا وحيدا خارجا عن مجال الأحداث الداخلية التى ذكرتها ، ألا وهو موت « تروتسكى » ، فقد طلعت علينا كل الصحف السوفييتية فى يوم ٢٤ أغسطس بخبر صغير عن موته ، فى مكان ظاهر يقول الخبر :

« ذكرت الصحف الأمريكية أن أحد أتباع « تروتسكى » اعتدى عليه ، فأصابه بكسر فى الجمجمة ، ومات فى أحد مستشفيات المكسيك » •

اقتصرت كل الصحف على هذا الخبر الصغير ، الا « برافدا » ـــ بوق الحزب ـــ ، فقد هاجمت رفيق « لينين » بعد موته فى مقال طويل تحت عنوان : « موت أحد الجواسيس العالميين » • فاض هذا المقال بكلمات السباب ، وبالحقائق التاريخية المزيفة ، فقد جاء فيه بالحرف الواحد :

« كان « تروتسكى » عميلا لأحد أجهزة المخابرات الأجنبية منذ عام ١٩٢١ » ، وختم مقال « برافدا » عن أمين اللجنة الشعبية فى « بتروجراد » الآن : « لينينجراد » منذ عام ١٩١٧ م ، ومؤسس الجيش الأحمر ، بهذه الكلمة : « لقد ختم هذا الانسان حياته بالعار ، وذهب الى القبر موصوما على جبينه : هذا جاسوس عالمى ، هذا سفاح » •

قابلت فى مساء ذلك اليوم ـــ أثناء تجولى ـــ أحد المتحمسين الذين

يعملون فى أحد المصانع السوفييتية ، وتطرق حديثنا بدون قصد الى موت « تروتسكى » ، فكان كلامه تعبيرا عن نفس الأفكار التى دارت بخاطرى أثناء قراءة الخبر فى الصباح :

« لا أدرى ، أصحيح أن المعتدى على « تروتسكى » من أتباعه ؟ »

واصلنا سيرنا ، فرأينا على عمود الملصقات اعلانا كبيرا عن احتفال شعبى (VOLKSFEST) (يشبه الى حد ما الاحتفالات التى تقـام فى الموالدعندنا) (١) فعلق عليه قائلا :

« ألا تعلم أن بعض العمال عندنا فى المصنع يقولون : ان اقامة هذا الاحتفال الشعبى هو بمناسبة موت « تروتسكى » ولم أجبه بكلمة واحدة ؛ لأنه على الرغم من نهاية حركة التطهير فقد كان من الخطر جدا ؛ أن يتحدث المرء برأيه صراحة فى موت « تروتسكى » .

بدا لى مهما للغاية فى أغسطس سنة ١٩٤٠ — أى بعد ١٣ سنة من طرد « تروتسكى » من الحزب ، و ١١ سنة من نفيه خارج الاتحاد السوفييتى — أن بعض العمـال لا يصدقون الرواية الرسمية لموت « تروتسكى » ، ويعتقدون أن « ستالين » يأمر بالاحتفال بموت هذا الثائر .

* * *

فى المعهد العالى للغات الأجنبية

انتهت الدورة التجهيزية فى المعهد العـالى فى صيف عام ١٩٤٠ م ، واقتربت امتحانات آخر العام من نهايتها .

وبعد مضى أيام قليلة كنت أقف متوتر الأعصاب فى المعهد العالى للمعلمين فى المبنى رقم ٣٨ فى شارع « متروويسكا أوليتسـا » وهو مبنى قديم يتكون من ثلاث طوابق ، ويقع بين محطتى مترو الأنفاق : محطة « القصر السوفييتى » و « منتزه الحضارة » . وسمعت من الطلبة أن هذا المبنى يضم أيضا معهد عال ، درس فيه « جوجول » ، وشعراء روسيون آخرون .

قيل لى فى المعهد :

— « لقد أنهيت الدورة التجهيزية فى معهد المعلمين ، فلم لا تكمل دراستك فيه » ؟

---

(١) (م . شـامة) .

ـ أنا عندى ميل خاص لمعهدكم .

فضحك رئيس قسم شئون الطلبة وقال :

ـ « اذن فلنر ما عندك ؛ أمستعد لدخول امتحان القبول » ؟

ـ نعم ! فأنا على استعداد كامل ؛ متى أحضر لعمل هذا الامتحان ؟

ـ مهلا ! لا تسير الأمور بهذه البساطة ! املأ ـ من فضلك ـ هذه الاستمارة أولا ؛ وأجب على ما فيها من أسئلة ؛ ثم أحضرها غدا ، وبعد ذلك نبحث فى طلبك .

لقد كانت أسئلة الاستمارة تفصيلية ؛ تناولت كل صغيرة وكبيرة ، وبالطبع كانت هناك مجموعة من الأسئلة تدور حول الوالدين ؛ وللاجابة على ما يتعلق بأمى ؛ كتبت الجملة المعهودة التى أكتبها دائما فى مثل هذه الاستمارة : « قبضت عليها المخابرات العامة » . لقد كانت استمارة رسمية يضمن الموقع عليها كل ما كتبه من معلومات ؛ وقبل أن أسلمها سألت أحد الطلبة الذين كنت أعرفهم معرفة جيدة :

ـ « ما رأيك ؟ هل يضرنى لو كتبت فى الاستمارة أن أمى مقبوض عليها ؟ » .

ـ « كما لو كنت الوحيد الذى يكتب مثل هذا فى استمارته ؛ انه من الأمور العادية اليوم ، لو أراد الممتحنون فى المعهد اعتباره أمرا يحول دون دخول الطالب لأفلس المعهد » .

وأنبأنى طالب آخر بما يشبه هذا الكلام :

« لوحظ أن كل الاستمارات التى ملئت فى عام ١٩٣٧م وجزء من ١٩٣٨م لم تخل من علامة × أمام السؤال عن الوالدين لأنهما ـ أو أحدهما ـ فى المعتقل ؛ فقد أشيع أن لجنة الامتحان تشتد فى الأسئلة ، لو عرف أعضاؤها أن الوالدين أو أحدهما مقبوض عليه ، ولكن سرعان ما رؤى عدم كتابة × لأن ذلك يلفت نظر الممتحنين الى كثرة أعداد المقبوض عليهم » .

وكان الحق فى جنب هذين الطالبين ؛ فقد قرأ رئيس شئون الطلبة الاستمارة ـ وفيها أن أمى مقبوض عليها ـ ؛ ولم يبد عليه أن شيئا غير عادى استوقفه . ثم قال :

« سوف تؤدى امتحان القبول بعد أسبوعين تقريبا ؛ وفى غضون هذين الأسبوعين ستحصل على بطاقة شخصية (كارنيه) ليسمح لك

بالأكل هنا ، كذلك لن تكون هناك عقبات تحول دون قبولك فى مساكن الطلبة لو نجحت فى الامتحان » .

ودعته فرحا مسرورا . ثم انشغلت فى الأسبوعين التاليين — كما هى العادة — بالاستعداد للامتحان . وفى منتصف أغسطس تلقيت خطابا قصيرا تقول كلماته : « نقر هنا أن الزميل « ليونهارد » قد قبل فى الدورة الدراسية الأولى فى معهد المعلمين الحكومى للغات الأجنبية فى موسكو » . ثم انتهت بعد أيام قليلة اجراءات قبولى فى مساكن الطلبة .

وكما هو متبع فى كل المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى ، يستطيع كل طالب أن يحصل على مكان فى مساكن الطلبة ، ان قدم طلبا ، اذ أن لكل معهد عال مساكن خاصة لطلابه . وكانت مساكن معهدنا فى « بتروفيريجسكى برويك » رقم ٦ — ٨ . كانت هذه المجموعة من العمارات تابعة سابقا للجامعة الشيوعية للشعوب الغربية ، ولما حلت آلت هذه المبانى الى معهد المعلمين للغات الأجنبية . أعدت الحجرات بمعدل طالبين أو ثلاثة فى الحجرة الواحدة ان كانت كبيرة ، وهى فى مجموعها ممتازة نسبيا عن مساكن الطلبة الأخرى .

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٤٠ — عندما بدأنا نحن الجدد عامنا الدراسى — طلب منا أن يحدد كل منا الكلية التى يريد الدراسة بها : انجليزية أو فرنسية أو ألمانية ؛ فاخترت الكلية الانجليزية .

اشتمل جدول المحاضرات الجماعية — التى تضم الكليات الثلاث — على تربية . وعلم نفس . وتاريخ تربيه . والمذهب الماركسى اللينينى ، والتربية العسكرية . وبجانب هذا كانت محاضراتنا التخصصية : تاريخ انجلترا ، وأدب انجليزى ، وعلم الصوتيات ؛ وقواعد اللغة الانجليزية ، وعلم اللغات . تسلمنا جدول المحاضرات عقب اختيارنا للكلية مباشرة . وكان حضورها الزاميا ، يؤخذ الغياب فى كل محاضرة ؛ وكان عندنا فى اليوم من ٢ — ٣ محاضرات عامة . تستغرق المحاضرة ٩٠ دقيقة وتقسم فى علم الأصوات . والقواعد ... الخ الى مجموعات صغيرة .

قسم طلاب السنة الواحدة الى ١٢ مجموعة ، ويبلغ عدد كل مجموعة من ١٥ الى ٢٠ طالبا تقريبا ، يدرسون فيها على هيئة

« سكاشن »(١). ولكنها لاتقارن بمثيلاتها فى الجامعات الغربية ، اذ أنها لا تخرج عن كونها درسا ، يشبه الى حد كبير حصة فى مدرسة .

يوجد هنا أيضا العديد من الامتحانات والاختبارات ، فكل طالب يحمل معه كراسة الفصل الدراسى وعليها صورته الشمسية ، يحملها معه دائما ويبرزها عند دخول المعهد ، وبجانبها كراسة صغيرة يسجل فيها درجات الاختبارات والامتحانات .

يعقد فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى نوعان من الامتحانات : ما يسمى بـ« سانتشوت » ، وفيه يمتحن الطالب فى كل المواد التى عليه ، ولا يحصل على درجة ، بل يكتفى بالكتابة فى كراسة الامتحانات التى يحملها بأنه أدى هذا الامتحان . وللطالب الحق فى أن يحاول أكثر من مرة فى وقت معين تأدية هذا الامتحان ، فهو يعتبر اذن مقدمة للامتحان « الأصلى » (أو امتحان تأهيلى) ، فاذا أداه الطالب ، وأطلع أستاذه على ما يفيد ذلك مكتوبا فى كراسته ، يسمح له بدخول الامتحان « الصحيح » . ويعقد فى آخر الفصل الدراسى فى أهم المواد ، ويكون عادة أصعب من الامتحان الأول ، ولا يسمح بتأديته الا مرة واحدة ، ويحصل الطالب فيه على درجات .

اذا قارنا بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الغربية يبدو لنا أن الرقابة على الطلبة ، ونظام الامتحانات فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى أشد ، وأصعب وأدق تنظيما . وتختلف أيضا عنها فى جامعات البلاد الأخرى بالتخصص الدقيق ، نعم يوجد فى بعض المدن السوفييتية انهامة جامعات تضم كليات مختلفة ، غير أن نظام الجامعات ليس هو الغالب ، بل نظام المعاهد التخصصية ، اذ لا يوجد — على سبيل المثال — فى الاتحاد السوفييتى كلية للهندسة ، بل معاهد متخصصة ، كل فى فرع ، مثل : المعهد العالى لصناعة آلات التبريد ، والمعهد العالى للتخطيط الهندسى ، والمعهد العالى للتعدين ... الخ .

يتناسب التخصص الدقيق فى معاهد الاتحاد السوفييتى مع الظروف التى تمر بها الدولة ، اذ تستطيع — بواسطته — فى وقت قصير جدا أن تخرج الأخصائيين فى كل المجالات ، وخاصة فى المجال الاقتصادى .

---

(١) نظام تنفذه الجامعة لدراسة المواد التى تحتاج الى مناقشة ، يستحيل اجراؤها فى محاضرة تضم أعدادا كبيرة من الطلاب . (م . شامة) .

وليس هناك خلاف فى أن هذا النظـام أفاد الاتحاد السوفييتى ـ فارتفاع عدد الطلبة (ارتفع عددهم بعد الحرب عما كان عليه فى عام ١٩٤٠م) ضمان لاستمرار تخريج المتخصصين فى كل المجالات ـ غير أنه تسبب فى أن الخريجين ، وان كانوا على درجة عالية فى منطقـة تخصصهم الا أن معلوماتهم فى المجالات الأخرى لا تساوى شيئا .

يكلف كل طالب بعد تخرجه بالعمل فى مجـال تخصصه سنتين أو ثلاثة (كفترة تدريب عملى) وتتكفل الدولة أيضا بتعيينه بعد أداء الامتحان النهائى .

لقد أدهشنى الاستعداد الكامل فى المعهد العالى ، اذ يوجـد فيه قاعات كبيرة للمحاضرات ، ومكتبة عامة ضخمة ، مزودة بالمراجـع الهامة ، وبجانبها يوجد « مكتبة » لكل مادة تدرس فى المعهد (وتتبـع القسم) مثل : علم النفس ، والتربية ، وعلم الصوتيات ، والتاريخ ، والأدب . ويجد الطالب فى « مكتبة المـادة » (مكتبة القسم) المراجع الهامة فيها ، ويساعده فى الحصول على ما يريد رئيس القسم أو أحد مساعديه .

كانت مكتبة « مـر » فخـر المعهد ، نسـبت الى « نيكولاى جاكوفليفتش » تكريما له ، فقد كانت مؤلفاته بالنسبة لنا آنذاك حقائق لا تنقض فى علم اللغة ، فقضاياه اللغوية ، تشترك مع مؤلفات « ستالين » فى عدم نقدها أو نقضها . صورت لنا على أنها قضايا أسست على النظرية « المـاركسية اللينينية » ، فوجهت ضربة قاضية للآراء السطحية فى مجال علم اللغة ، اذ رأى « مر » أن اللغة جـزء من البناء الطبقى ، لا يفهم تطورهـا الا فى اطار تطور المجتمع ، فقد خلقت الانسـانية لغتها فى ظل مؤثرات العمل ، وتحت ظروف ارتباطات اجتماعية معينة ، ولذا فهى تتغير باستمرار ، طبقا لظروف نموذج الحياة الاجتماعى .

لم يفكر أحد منا ـ اللهم الا ان كان هذا فى منامه ـ آنذاك ، فى أن « مر » المنزه عن النقـد ، سيتعرض بعد عشر سنوات لنقـد « ستالين » وهجومه العنيف .

بلغ عدد الدارسين فى المعهـد العالى للغات الأجنبية فى موسكو آنذاك حوالى ٢٥٠٠ دارسا ، منهم ٢٤٤٠ طالبة ، و ٦٠ طالبا ، فقـد كان المعهد العـالى الوحيد فى الاتحاد السوفييتى الذى يزيد فيه

عدد الطالبات عن عدد الطلبة بنسبة كبيرة جدا ، ولهذا أطلق عليه الطلبة تفكها « معهد الفتيات العفيفات » ولم يكن هذا المعهد مشهورا فقط باطلاق اسم « الفتيات العفيفات » عليه ، بل لأنه ضم أيضا طلبة اجانب هم أبناء وبنات اللاجئين السياسيين ، وكذلك أبناء وبنات زعماء الحزب والدولة وأبناء الدبلوماسيين الذين قضوا مدة طويلة فى الخارج .

أنشأت صداقات مع طلبة المعهد ، ولم يكن أصدقائى من الروسيين فقط ، بل من الطلبة الأجانب ، فقد كان من بين أصدقائى طالب بولندى ، اشترك فى الفرقة العالمية التى قاتلت فى الحرب الأهلية الأسبانية ، وفتاة أمريكية ، وأخرى كورية ، وطالبة سوفييتية ، قضت زمنا طويلا فى « خربين » لأن أبويها كانا مستخدمين فى هيئة السكك الحديدية المنشورية (نسبة الى منشوريا) ، كذلك صادقت كثيرا من التلاميذ السابقين الذين كانوا معى فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » .

رغم تمييز معهدنا بهذه الصفات الفريدة ، فقد كان ذا طابع روسى ، اذ كان فيه — كما هو الحال فى كل المعاهد العليا — بجانب الدراسة نشاط أطلق عليه « العمل الاجتماعى » ، وتحدده منظمة الشباب ، وترسم خططه فى اجتماعات الحزب (كان كثير من الطلبة أعضاء فى الحزب) . لم تختلف اجتماعات منظمة الشباب فى المعهد عنها فى المؤسسات الأخرى ، اجتماعات مملة ، ليس فيها ما يثير ، اذ لم تخرج عن مناقشة ما أسند الى الأعضاء ، وبيان أن هذا العضو أو ذاك نفذ التعليمات .. أو .. أو ..الخ ولم تناقش المسائل السياسية الا فى مناسبات العطلات الرسمية مثل : قبل أول مايو ، وفى يوم الثورة ٧ نوفمبر ، أو قبل ٢٣ فبراير ، وهو يوم الجيش الأحمر . وكنا نسمع فى هذه الاجتماعات الخطب المعروفة التى تلقى فى جميع المؤسسات والمصانع ، ومن الغريب أن بعض أعضاء منظمة الشباب المتحمسين للاتجاه السياسى كانو يسمعون نفس الخطبة مرتين فى مناسبة واحدة .

كان أقل من هؤلاء تحمسا أعضاء ما يسمونه « التنظيم الشعبى » الذى ينتمى اليه أيضا — بالضرورة — كل عضو من أعضاء « الكمسمول » . كونت المنظمة « جمعية واجبات الدفاع » فى مجال الطيران والكيمياء ، ومن أهم الواجبات ، تنظيم دروس للشباب فى القفز بالمظلات ، والتدريب على الرماية ، وتعليم وسائل الدفاع الجوى ، واستعمال المواد

الكيماوية فى مجالات الدفاع ... الخ . لكن اقتصر واجبنا — نحن أعضاء الجمعية — من الناحية العملية ، على دفع الاشتراك ، وسماع ثلاث محاضرات أو أربعة فى السنة عن الدفاع المدنى .

تكون فى معهدنا تنظيم آخر ، أطلق عليه « التنظيم العالمى لرعاية المناضلين من أجل الثورة » كان يرعى كثيرا من اللاجئين السياسيين ولكنه لم يكن له نشاط يذكر فى معهدنا ولا فى المعاهد العليا الأخرى ، الا أنه انعقد فى ٨ مارس — وهو يوم الجمعية الباريسية ، اتخذه التنظيم عيدا له ، يحتفل فيه — اجتماع عام بناء على دعوة هذا التنظيم العالمى . وتحدث فى اجتماعنا — يوم ١٨ مارس ١٩٤١م — « فلهلم بيك » فعرض لنا فكرة عامة عن الموقف الدولى .

كان التنظيم الثالث الذى كنت عضوا فيه — كما كان ينتمى اليه كل أعضاء منظمة الشباب فى المعهد — يسمى « اتحاد الملحدين المناضلين » . فقد هذا التنظيم — بمرور الزمن — أهميته كلية ، وأصبح لا لزوم له ، فقد لوحظت سياسة جديدة تجاه الكنيسة فى نهاية الثلاثينات ، وكانت أكثر وضوحا أثناء الحرب . ومن جانب آخر كانت مهمة هذا التنظيم بالنسبة لنا — أعضاء منظمة الشباب والطلبة — لا مكان لها من الناحية العملية ، فقد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب ، لم يمسسها أى تيار دينى ولهذا لم نشغل فكرنا اطلاقا بهذا الجانب . وأقل ما يتصور أن مهمة هذا الاتحاد لم يعد لها وجود ، اننى لم أقابل — فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى — انسانا واحدا من جيلى ، ليس ملحدا .

انتشر خبر مقتضب جدا فى أوائل عام ١٩٤٢م — لم أكن فى هذا الوقت مقيما فى موسكو — مفاده أن اتحاد الملحدين المناضلين قد حل ، دون اعطاء تفسير لهذه الخطوة ، بل لم تنشر وسائل الاعلام شيئا عن قرار الحل اطلاقا . وطبقا لطبيعة الأسلوب السوفييتى — كلما رجع الاتجاه السياسى الى ما كان عليه فى الماضى — فى طمس معالم التاريخ لخدمة الأيدلوجية السياسية ، لم يعد يذكر — حتى فى الطبعات الجديدة لدائرة المعارف السوفييتية — أن هذا التنظيم « اتحاد الملحدين المناضلين » كان له وجود فى يوم من الأيام .

* * *

حيـــاة الطالب الســـوفييتى

أصبحت فى غضون هذا العام أحد الـ ٦٠٠ر٠٠٠ طالبا الذين كانوا يدرسون آنذاك فى الاتحاد السوفييتى ؛ وكان برنامجى اليومى مماثلا لبرنامج كل طالب آخر •

كنت أحضر المحاضرات المقررة ؛ و « السكاشن » حتى وقت متأخر من بعد الظهر (أى حتى بعد العصر)(١) ؛ وأتناول طعام الغداء فى مطعم المعهد ، ولا أعود — فى معظم الأيام — الى حجرتى الا فى المساء •

كانت مساكن معهدنا تعتبر أحسن من مساكن المعاهد العليا الأخرى ، ولكنها اذا قيست بالمدن الجامعية فى البلاد الغربية ، فهى بدائية جدا ، اذ يوجد فى الحجرة دولاب صغير ، بسيط جدا ، نحفظ فيه معاطفنا ، وأحذيتنا الطويلة (أحذية برقبة طويلة ومصنوعة خصيصا لحماية القدم من برد الشتاء ، ومن رطوبة الثلوج)(٢) التى نلبسها فى فصل الشتاء فى موسكو • أما « الكراكيب » الأخرى ، التى فى حوزتنا ، فكنا نضعها — مثلنا فى هذا مثل كل الطلبة الآخرين — فى حقيبة صغيرة ، وضعت تحت السرير •

كان البرد فى الشتاء قارسا ، ولم تكن التدفئة كافية ، مما كان يضطرنا — فى غالب الأحيان — الى الجلوس فى الحجرة ، مرتدين المعاطف الشتوية ، كى نستطيع تحضير الدروس ، ومراجعة ما أخذناه •

كان « الكيس الدافىء » المنقذ الوحيد لنا فى مثل هذه الليالى الباردة وهو عبارة عن قربة مملوءة بالمـاء الساخن (وللأسف لم يكن ساخنا فى بعض الحالات ، بل فاتر) الذى نستعمله فى عمل الشـاى • وكان لدى بعض الطالبات سخانات كهربائية بدائية ، لعمل الشـاى والقهوة ، على الرغم من أن استعمال مثل هذه الآلات ممنوع فى المدينة الجامعية ، أما ما يتعلق بالملابس فقد استطعت تدريجيا أن أجارى الطلبة الآخرين ، لدرجة أنى أصبحت مثل الطلبة السوفييت ، وصار من المتعذر على من يرانى أن يظن أنى أجنبى •

كان التعليم آنذاك مجانيا ، وعلاوة على هذا كان كل طالب يحصل من الدولة على منحة دراسية ، ترتفع اذا انتقل الطالب الى دورة أعلى

---

(١) (م • شـامة) •

(٢) (م • شـامة) •

(الدورة الدراسية فى الاتحاد السوفييتى فصلين دراسيين ، أى عام دراسى كامل) ، تراوحت المنح آنذاك ما بين ١٤٠ روبل فى أول دورة و ٢٨٠ فى الدورة النهائية .

كان هذا المبلغ كافيا فى ذلك الوقت لمواجهة ضروريات الحياة فقط ، أعنى لدفع الايجار الرمزى فى المدينة الجامعية ، ولشراء ما يحتاجه الطالب من أكل وشرب لسد الرمق فقط . أما الملابس فلا يستطيع الطالب شراءها من المنحة ، الا اذا اقتصد ، بحيث يعيش عيشة الكفاف ، واستطاع ذلك عدد قليل جدا من الطلبة ، ولم أفهم حتى اليوم ، كيف استطاعوا ذلك !

سعى الطلبة الى الحصول على ما ينقصهم من مال ، كل بطريقته الخاصة ، فبعض الطلبة الذين لهم آباء ، أو أصدقاء ، أو أقارب يعيشون فى الريف كانوا يحصلون على طرود مملوءة بالمواد الغذائية (زوادة) وخلافه ، وآخرون تلقوا النقود من آبائهم ، أو من معارفهم الذين يقيمون فى المدينة . وكان هناك فريق ثالث — وعددهم ليس قليلا — مارسوا أعمالا — مثل تنظيف الشوارع من الثلوج ، أو ترجمة ، أو اعطاء دروس فى اللغة الأجنبية — للحصول على ما يحتاجون ، غير أن هذه الأعمال الاضافية أثرت على الدراسة تأثيرا سلبيا لدى الطالب المتوسط الذكاء والتحصيل .

حصل معظم الطلبة الأجانب — وعلى الأخص أبناء وبنات اللاجئين السياسيين — من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، على مساعدة اضافية ، بلغت قيمتها ٢٠٠ روبل شهريا . وهكذا بلغ مجموع ما نحصل عليه ٣٤٠ روبل . ومع هذا كنت أعيش بهذا المبلغ عيشة أحصل فيها على ضروريات الحياة فقط . كذلك حصل الطلبة الروسيون ، الذين فقدوا الأب والأم ، وتربوا فى دور الاحداث على مساعدة ولكنها لم تبلغ قيمة المساعدة التى كنا نأخذها من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة .

ولكن لم تضايقنا الصعوبات المادية ، فقد كنا جميعا مشغولين بالدراسة لدرجة أننا لم نهتم كثيرا بالجرى وراء حياة رغدة لينة — باستثناء مجموعة صغيرة — وخاصة اذا كنا نرى طبقات أخرى من الشعب تكافح كفاحا مريرا ، ومع ذلك لا تحصل الا على الكفاف .

شغلنى آنذاك شىء آخـر ، وأقـق راحتى أكثر من هـذه الأمور المـادية ؛ فمنذ نهاية حركة التطهير الكبرى فى أوائل عام ١٩٣٩م ؛ وأنا أعتقد أن زمن التجسس قد ولى ؛ وأن الاجراءات المخيفة لن تعـود ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتقاد .

فقد كنت على علاقة وثيقة بطالبة ؛ لا أستطيع اليوم أن أصفها وصفا يدل عليها ، لأنه لا زالت تعيش فى ألمـانيا الشرقية ، كانت من الأفراد القلائل الذين كنت أستطيع التحدث معهم بصراحة .تحدثنا فى تجوالنا فى منتزه الحضارة ؛ وعلى ضفاف « نهر موسكفا » عن المسائل التى يهتم بها الشباب فى كل البلاد ؛ وأحيانا عن الأشياء التى نضايقنا فى الاتحاد السوفييتى . كانت هذه الأحاديث بالنسبة لنا أمرا ضروريا لا نكف عنه .

وذات يوم همست فى أذنى ؛ عندما كنت واقفا فى احدى طرقات المعهد « فولوديا » (وهو الاسم الذى كنت معروفا به بين الطلبة) لابد أن أتحدث معك الليلة على انفراد فى موضوع هام جدا » .

توترت أعصابى حتى جاء المساء . وقبل أن نتحدث أخذت منى عهودا : « عدنى أنك لن تتحدث مع أى انسان ؛ مهما كانت الظـروف بما أقوله لك الآن » .

ووعدتها بذلك (ووفيت بوعدى أيضا) .

« عدنى أنك لن تفعل شيئا اطلاقا ؛ يفهم منه أنك تعرف أسرارى » .

وبعد أن أعطيتها الوعد بذلك ؛ بدأت تتكلم بصوت متهدج :

« أنا أعمل مع المخابرات العامة ؛ فمنذ بضـعة أيام طلبونى ، وأجبرونى على التوقيع على ورقة مكتوب فيها ؛ أننى مستعدة أن أزودهم بالمعلومات التى يطلبونها ، وألا أقول لأحد شيئا عن مهمتى » .

« والآن أنا مكلفة بكتابة تقـارير بصفة مستمرة عن بعض طلبة معينين . ولن أوقع على هذه التقارير باسمى الحقيقى ؛ بل باسم مستعار ، معروفة به عندهم فى مجال هذه المهمة » .

— « عن أى شىء تكتبين تقاريرك ؟ عن الكلام ضد الحزب ؟ » .

— « ليس هذا فقط ، فهذا قليل نسبيا ، بل مكلفة بالكتابة عن كل شىء يصدر من الأشخاص الذين سموهم لى ؛ سواء تتعلق بالسياسة مباشرة ؛ أو بطريق غير مباشر » .

ـ « هل كتبوا اسمى فى هذه القائمة ؟ » .

ـ « لا ! حتى الآن لم أكلف بالتجسس عليك . ولكنى متأكدة من أنهم سوف يسألوننى عنك ، فقد قيل لى : انها البداية وستأتى أسماء أخرى . ولا أدرى ان كنت أستطيع أن أتغاضى عن ملاحظاتك على الموقف السياسى ! أعتقد لا ! ولهذا أرجوك ألا تتحدث معى ابتداء من اليوم فى موضوعات سياسية » .

نظرت فى عينيها ، فلاحظت أنها حزينة جدا ، حزينة لأنها لم تعد تستطيع التحدث معى بصراحة ، ذلك الحديث الذى كان يخفف عنها كثيرا من الآلام النفسية ، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى حزنها ، بل بدا أيضا ـ بصفة خاصة ـ أنها متضايقة نفسيا ، لأنها أجبرت على العمل مع المخابرات العامة ، وقد أحسست هذا بوضوح . ولكن عندما أفصحت لى عن كل ما فى نفسها ، علمت أنها لم يكن لها أن تختار طريقا آخر ، لو رفضت العمل مع المخابرات العامة لأثارت الشكوك حولها ، ولربما ترتب على رفضها القبض عليها .

كان اطلاعها اياى على عملها الجديد ، وبطريقة تفصيلية تناولت كل صغيرة وكبيرة (لم أسرد كل ما دار بينى وبينها ، حتى لا أعطى المخابرات العامة معلومات تمكنها من الاهتداء الى شخصيتها) دليلا على صداقتنا المتينة التى أعتز بها ما حييت .

استولت على كآبة قاتلة من هذا الخبر ، وأزعجنى ما روته لى من ناحية أخرى ، اذ أصبح مؤكدا عندى أنها ليست الوحيدة التى تقوم بهذا العمل ، بل يوجد بيننا طلبة ، وطالبات ، يكتبون للمخابرات العامة بصفة مستمرة ، عن كل الأحاديث التى تدور بيننا فى المعهد العالى ، وفى المدينة الجامعية .

كم عدد هؤلاء ؟ مر بذهنى صور وأسماء من أعرفهم من الطلبة والطالبات . ترى ، من منهم يقوم بكتابة التقارير للمخابرات العامة ؟ وتركزت شكوكى حول أحد الطلبة الذين أعرفهم ، ولكن ! هل أستطيع أن أتأكد من ذلك ؟ وهل كان من الممكن أن أشعر بأن هذه الطالبة تكتب للمخابرات لو لم تخبرنى هى بذلك ؟ ومن يضمن لى أن أحدا من أصدقائى الطلبة لم يجبر أيضا على أن يقوم بهذه المهمة ؟ وهل توجد لديهم الشجاعة فيخبروننى بما يقومون به ، وبذلك يكونون قد أفشوا خبرا التزموا التزاما اجباريا بأن يحافظوا على سريته ؟ .

سرى شعور مقبض فى جميع خلايا جسمى ، اذ من المحتمل أن يكون كل حديث — حتى ولو تناول الأمور السياسية من زاوية بعيدة — قد سجل كتابة وبعث به أسبوعيا الى المخابرات العامة ، لم أكن ضد النظام اطلاقا — ولكن ! ألم أقل شيئا — فى وقت ما — ضد الاتجاه الرسمى لسياسة الدولة ؟ ... ثم قررت — ابتداء من هذ اليوم — أن أكون أشد حرصا من ذى قبل ، وأن ألتزم « الخط » التزاما دقيقا فى كل المحادثات ، واذا أمكن فلأحاول تغيير مجرى الحديث بعيدا عن الموضوعات السياسية ، وطرق المجالات التى لا تمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد .

* * *

الضربة الكبرى فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠

لم يكن قد مضى على التحاقى بالمعهد العالى سوى أربعة أسابيع ، عندما وصلنا فى صباح ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٠ خبر — كان وقعه علينا كالصاعقة — غير مجرى حياة الطلبة تغييرا جذريا .

أحضر طالب — ساقته قدماه الى الشارع ، عندما استيقظ مبكرا جدا — الجريدة معه ، ودق على أبواب الحجرات وهو يردد بصوت عال :

« ألغيت المنح الدراسية » .

فقال زميلى فى الحجرة : « لقد جن هذا الغبى » ولكنه رغم هذا أسرع فارتدى ملابسه ، وحذوت حذوه .

وعندما خرجنا الى الطرقة ، وجدنا مجموعة من الطلبة متحلقة حوله ، وهو يقرأ عليهم فى « برافدا » قرار مجلس وزراء الاتحاد السوفييتى فرض مصاريف التعليم ، فى المدارس المتوسطة ، وفى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى :

« نظرا لارتفاع الرخاء المادى لعمال ومستخدمى الدولة .... » عندما سمعنا هذه البداية ، توقعنا شرا .

قرأ أولا ما يتعلق بمصاريف التعليم فى الثلاث سنين الأخيرة من المرحلة المتوسطة ، ثم تلى ذلك الضربة التى أصابتنا :

« وبالنسبة للدراسة فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى تقرر دفع المصاريف على النحو التالى :

(أ) فى المعاهد العليا التى مقرها فى موسكو ، ولينينجراد ، والمدن الرئيسية فى الاتحاد السوفييتى — ٤٠٠ روبل فى السنة .

(ب) فى المعاهد العليا التى يكون مقرها فى مدن أخرى ، غير ما سبق ذكرها فى البند السابق — ٣٠٠ روبل فى السنة .

(ج) فى المعاهد العليا ، للموسيقى ، والفن ، والمسرح — ٥٠٠ روبل فى السنة .

وتدفع المصاريف فى المعهد الذى يدرس فيه الطالب على قسطين : الأول ١ سبتمبر ، والثانى ١ فبراير .

ملحوظة : لا يجوز تأخير دفع القسط الأول من مصاريف العام الدراسى ١٩٤١/٤٠م عن أول نوفمبر من هذا العام » .

عم الحزن وجوه الطلبة كلهم ، لا بسبب الغاء مجانية التعليم فقط ، بل أيضا — وبصفة خاصة — لأن القسط الأول من هذا العام يجب ألا يتأخر دفعه عن أول نوفمبر .

قال أحدهم بنبرات يائسة : « لم يبق سوى ٢٧ يوما » .

فكرنا طويلا فى تدبير هذا المبلغ ، واتجه اهتمامنا الى كيفية توفيره من المنحة الشهرية التى نتقاضاها ، ولكن جاءتنا الضربة الثانية ، فقد تقرر — باجراء مماثل — وقف صرف المنح الشهرية ، ولا يحصل عليها مستقبلا الا الطلبة المتفوقون .

وكما هو متبع فى الاتحاد السوفييتى ، فقد عقدت ندوات لبيان الأسباب التى دعت الى « تغيير قواعد توزيع المنح الدراسية » — حسب ما جاء فى التعبير الرسمى — وفرض مصاريف على التلاميذ والطلبة .

انتهت الندوة فى معهدنا طبقا للخطة الموضوعة ، ولم يحدث ما يعكر الصفو ، فبعد أن انتهى الخطيب من كلمته ، صفق له الحاضرون كالمعتاد ، ثم استفسر عما اذا كان هناك شىء غير واضح أو أسئلة تحتاج الى شرح ، أو طالب يريد التعقيب على النقاط التى تناولها : فسكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يرفع أحد يده طالبا الكلمة .

وبعد بضعة أيام روى لى طالب أن وكيل وزارة التربية والتعليم ألقى محاضرة فى أحد المعاهد العليا فى موسكو عن القانون الجديد ، وبعد أن انتهى من محاضرته ، وجه اليه طالب أمام الحاضرين هذا السؤال :

« كيف توفق بين القانون الجديد ، وبين المـادة رقم ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتى ؟ » •

كان سؤالا محرجا ــ فالمـادة ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتى ، تنص على مجانية التعليم فى جميع مراحل التعليم . بما فيها المعاهـد العليا •

بين وكيل وزارة التربية والتعليم بأن القانون تضمن الدواعى والأسباب التى أدت الى اتخاذ مثل هذا الاجراء ، وسوف تغير تلك المـادة من الدستور لتتلائم مع القانون الجديد • وقد حدث هذا فعلا ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه الحالة ليست الوحيدة التى يتعارض فيها القانون فى الاتحاد السوفييتى مع الدستور •

ولكن الطلبة لم يشغلوا أذهانهم بعد ٢ أكتوبر ، بأن القانون يتعارض مع الدستور أم لا ، بل أمعنوا التفكير فيما ينبغى أن يفعلوه ليسددوا المصروفات •

جاء فرض مصاريف دراسية ، والغاء المنح الدراسية فى وقت واحد ، ولهذا أصبح من غير الممكن على كثير من أبناء الريف وبنات العمال ، والفلاحين فى المزارع الجماعية أن يستمروا فى التعليم •

رأيت فى تلك الأيام عيونا باكية ، وحتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا • وكان الموقف الدرامى ــ الذى تأثرت به بنوع خاص ــ وداع طالب ، أحمر الشعر ، ينحدر من أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهدا فى دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرسا لتلاميذ المرحلة المتقدمة فى المدارس ، وكانت تبدو عليه ــ قبل صدور هذا القانون ــ علامات السرور ، كلما تذكر أنه كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله •

ولكن لم يكن الطالب الوحيد ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد ــ لأنهم من أسر فقيرة ، لا تستطيع أن تصرف عليهم ــ فى ازدياد مستمر • والحقيقة أنه لم يبق فى المعهد الا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار •

لم يكن معظم الطلبة الأجانب ، وكذلك كل الطلبـة الروسيين الذين نشأوا فى دور الأحداث ينتمون الى الطبقة القادرة على مواصلة

الدراسة • ولهذا فقد اعتقدنا فى بادىء الأمر أننا سنضطر أيضا الى ترك المعهد ، غير أنه بعد مضى بضعة أيام ، تلقى الطلبة الروسيون الذين تربوا فى دور الأحداث تأكيدات بأنهم سيحصلون على المعونات اللازمة لاستمرار دراستهم • وفى هذه الأثناء سعى الطلبة فرادى لدى رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة التى ساعدتنا بين الحين والآخر ، وسرعان ما وصلت الينا أنباء تفيد بأنهم لن يتركوننا فى هذا المأزق بدون مساعدة ، فقد وعدت الرابطة بأن تدفع مصاريف الدراسة للمعهد ، وتبلغ ٤٠٠ روبل سنويا ، كما ستعطينا منحة شهرية زيادة على المساعدة التى نأخذها منها قبل الغاء المنح الدراسية التى كنا نتقاضاها من الدولة •

كلما أعود بذاكرتى الى الوراء ، لا أتذكر فقط مواقف الوداع المؤلمة ، التى شاهدت فيها وداع كثير من أصدقائى الطلبة فى المعهد ، بل يبدو لى واضحا أيضا أن هذا القانون أشار الى خطوة جديدة فى تطور نظام ستالين •

فتولى المناصب فى الاتحاد السوفييتى مقصور على خريجى المعاهد العليا ، الا ما كان نادرا ، وقبل ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠م كانت الفرصة — من الناحية العملية — سانحة ، ومهيئة لكل الموهوبين ، والمهرة من أبناء وبنات العمال والفلاحين — بصرف النظر عن مدى قدرة أسرهم المادية — بأن يتموا المراحل المدرسية ، ويدرسوا فى المعاهد العليا ، وبهذا كان الطريق مفتوحا أمامهم لارتقاء سلم الوظائف الى نهايته — وهى حقيقة أشادت بها آنذاك وسائل الاعلام مرارا وتكرارا • ولكن أصبحت القاعدة منذ ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠ مغايرة تماما لهذا المفهوم ، فلن يستطيع — بعد صدور القانون الجديد — الصعود فى سلم المناصب العليا فى الدولة الا أبناء وبنات طبقة معينة ، ألا وهى الطبقة المهيمنة على الوظائف الكبرى فى الحزب ومؤسسات الدولة ، اذن فقد قفلت الدائرة : فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير — امتدت من ٣٦ الى ١٩٣٨م — التى أطاحت بـ « المجموعة القديمة » ، بدأت فى عام ١٩٤٠م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى ، وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم •

السؤال عن اللاجئين الألمـان مرة أخـرى

فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠م — أى بعد مرور عام ونصف على توقيع معاهـدة عدم الاعتداء مع ألمـانيا ، وبعد مـرور بضـعة أسابيع على زيارة « مولوتوف » لبرلين — تذكر المسئولون فجأة اللاجئين السياسيين الألمـانيين .

فبعد أن حل بيت الطلبة الذى كنا — نحن أبناء وبنات اللاجئين السياسيين الألمـانيين والنمسويين — نقيم فيه ، لم نتقابل ، ولم ير بعضنا البعض الا نادرا ، وبطريق الصدفة ، لأن معظمنا كان يعمل فى المصانع ، والبعض كان لا يزال يقيم فى المقر الروسى لرعاية الأطفال ، والبعض الآخـر التحق فى هذه الأثنـاء بالمعاهد العليا . كذلك تزوج عدد منا بنات روسيات ، واندمجوا فى الحياة الروسية .

دهشت كثيرا عندما تلقيت فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠ م — أى بعد أسابيع قليلة من عودة « مولوتوف » من برلين — دعوة لحضـور اجتماع سيعقد تحت رعاية اللجنة المركزية لرابطة التنظيم العـالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة . كنت مسرورا ، لأن هذا الاجتمـاع سيتيح لى رؤية أصدقائى السابقين .

ذهبت الى مقر الرابطة مشدود الأعصاب ، أستحث عقارب الساعة للوصول الى الساعة ٨ مساء ، وهو الموعد المحدد للاجتماع . وهناك تبودلت التحيات بحرارة ، فقد قابلت — حقيقة — عددا كبيرا من زملائى السابقين فى بيت الطلبة رقم ٦ ، وكذلك كثيرا من الشباب الألمانى أبنـاء وبنات اللاجئين السياسيين الذين أقامـوا — بعد حل مقرنا — مع أسرهم . علمت أن كلهم تقريبا التحقـوا بمنظمة الشباب ، ولاحظت أنهم يتحدثون اللغة الروسية بطلاقة ، بل ان بعضهم كان يتحدث الروسية أحسن من الألمـانية .

لقد كان الوقت قصيرا لتبادل التحيات ، وتبادل الحديث ، واستعادة الذكريات ، لأنهم سرعان ما طلبـوا منا أن نتخـذ أماكننـا فى القاعة الكبرى ، ثم بدأ البرنامج الرسمى بخطبة ألقاها أحد كبار الشيوعيين النمسويين ، ومما قال فيها :

« أيها الرفقاء : لقد دعوناكم لنصل ما انقطع من أحكام الرباط

بيننا ، ولن يقتصر الأمر على لقاء واحد فقط . بل ابتداء من اليوم ، سنجتمع أسبوعيا ، مساء كل يوم اثنين للتثقيف السياسى . وسوف يقسم جميع الحاضرين الى مجموعات صغيرة ، لأن واجبكم لن يكون حضور اجتماع يوم الاثنين فقط لسماع المحاضرة العامة ، بل ستكلفون أيضا بقراءة كتب ، سنعينها لكم ، لتناقشوها فى اجتماع المجموعات الصغيرة .

وأحب أن أشير هنا بنوع خاص الى أن هذه الدراسة لكم فقط ، فلا يجوز لأحد منكم — لأسباب لا تخفى عليكم — أن يتحدث عنها ، أو يخبر بها أحدا خارجا عن محيطكم بما يدور فيها مهما كانت الظروف » .

لقد عشنا زمنا طويلا فى الاتحاد السوفييتى ، تعلمنا فيه ، وجوب المحافظة على مثل هذه التعليمات ، ولهذا لم نخبر معارفنا الروس بشىء من هذا اطلاقا . ومما يدل أيضا على اهتمامهم غير العادى بهذه الدراسة ، أنهم سمحوا لكل الذين يعملون فى المصانع فى الوردية المسائية أن يتغيبوا عن العمل ، دون أن يعلم المسئول فى المصنع سببا لهذا سوى أنه بناء على أوامر السلطات العليا .

كذلك لم أتحدث مع الطلبة الروس عن هذه الدراسة الخاصة ، ولكن الأفكار حول هذه الدراسة لعبت بذهنى ، فقد أثار اجتماع الزملاء من الألمانيين والنمسويين المقيمين فى موسكو بعد سنة ونصف الشكوك عندى ، وجعلتنى أكاد أعتقد أنها اشارة الى أن العلاقة مع ألمانيا الهتلرية ، ليست كما تدعى التصريحات الرسمية بأنها طيبة .

لم يلاحظ فى وسائل الاعلام السوفييتية أدنى اشارة تدل على سوء العلاقة مع ألمانيا ، فكلما جاء فى الصحف الأجنبية أنباء يمكن أن تسىء الى هذه العلاقة بأى وجه ، أسرعت الجهات الرسمية الى نفيها بشكل قاطع ، وحازم . وركزت وسائل الاعلام على رحلة « مولوتوف » الى برلين ، بأنبائها . وتعليقاتها ، وفى منتصف نوفمبر أعادت « برافدا » نشر صورة من اللقاءات ، ظهر فيها « مولوتوف » مع هتلر .

كذلك تجنبوا فى ندوات التثقيف السياسى — التى تعقد مساء كل يوم اثنين ، فى مقر رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة — الخوض فى الموضوعات التى تمس الوضع العالمى المعاصر ، وعلاقة الاتحاد السوفييتى بألمانيا الهتلرية . وكان موضوع دراستنا ينحصر فى دراسة تاريخ الحزب الشيوعى — ولثالث مرة أشترك فى

دراسة هذا التاريخ — وبعض المسائل الهامة فى النظرية « الماركسية اللينينية » ؛ وسماع محاضرات عن تاريخ الحركة العمالية فى ألمانيا • ففى اللقاء الثانى سمعت محاضرة من أحد المسئولين الذين كنت أسمع عنه قبل ذلك دون أن أراه ، ألا وهو « فالتر أولبريخت » تناول فيها بالتفصيل ثورة سنة ١٩١٨ م ؛ ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن الوضع الحالى لحركة الكفاح ضد الفاشية • وسمعنا مرة أخرى محاضرة عن طبيعة الحرب العالمية . وانطلاقا من الرأى الرسمى فى التفريق بين الحرب الشرعية ، والحرب غير الشرعية ، حاول المحاضر أيضا التدليل على أن الحرب من كلا الجانبين — سواء من جانب ألمانيا وايطاليا أو من جانب انجلترا وفرنسا — هى حرب استعمارية ؛ غير شرعية •

لم ألاحظ تغييرا فى « الخط السياسى » الا فى أوائل عام ١٩٤١م ؛ ففى احدى المحاضرات ؛ تحدث « أولبريخت » عن احتمال تغيير طبيعة الحرب — وهو أمر حدث ويحدث فى التاريخ — تبعا للظروف التى تمر بها ، وحينئذ خيم على القاعة صمت رهيب ، لأن مثل هذه الملاحظة لا يمكن أن يقرأها المرء آنذاك فى الصحف • ثم واصل « أولبريخت » حديثه قائلا : « فهذه حقيقة هامة جدا بالنسبة لهجوم ألمانيا على يوغوسلافيا واليونان ؛ اذ أن هناك عناصر هامة — وخاصة فى قضية يوغوسلافيا — يمكن أن يستخلص المرء منها الحكم بأن الحرب الدفاعية التى يشنها كلا الشعبين ضد الهجوم السافر عليهما هى حرب شرعية » • وعلى الرغم من أن « أولبريخت » كان حريصا جدا فى تعبيره وتجنب أيضا كلمة الفاشية — التى كان محرما التلفظ بها منذ توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى — فى هذه الحالة الا أن هذه الاشارة كانت كافية لى •

انقضت بضعة أسابيع ؛ لم نتناول فيها الموضوعات الحساسة التى تمس العلاقة بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى • وفى يوم الاثنين ٢٦ يونية سنة ١٩٤١م ؛ جئنا الى مقر الرابطة ؛ لنواصل دراستنا المسائية كالمعتاد . وكان المتحدث فى هذه الليلة « أولبريخت » أيضا ؛ وبعد أن تحدث ما يقرب من ساعة ونصف ؛ أعلن فى نهاية المحاضرة — كالمعتاد — فتح باب الأسئلة ؛ فتقاطرت عليه من كل جانب حول موضوع المحاضرة — على ما أذكر — لم يكن له علاقة مباشرة بالوضع الحالى ، ولكن

تحولت المناقشة تدريجيا الى أن أصبحت تدور حول الأحداث المعاصرة آنذاك ، فوجه اليه أحد المستمعين هذا السؤال :

« أيها الرفيق « أولبريخت » ، تتحدث الجرائد الأجنبية — ويزداد ما تنشره حول هذا الموضوع يوما بعد يوم — عن توقع هجوم ألمانى على الاتحاد السوفييتى ، الا أن وسائل الاعلام السوفييتى تكذب هذه الأنباء تكذيبا قاطعا ، ولكن ! هل يمكن أن تعطينا فكرة دقيقة عن هذا الموضوع ؟ » .

غير أن « أولبريخت » لم يجب على السؤال مباشرة ، بل أعاد — مجملا — التكذيب الرسمى الذى قرأناه فى الصحف ، ثم اختتم جوابه بهذه الكلمة :

« هذه اشاعات تروجها جهات بغية الاستفزاز ، ولن تقع حرب بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى » .

وبعد ستة أيام بدأ هجوم « هتلر » على الاتحاد السوفييتى .

* * *